المحاضرة الأولى: مدخل مفاهيمي

1) البلاغة : مفهوم البلاغة:

قال أبو هلال العسكري: "البلاغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري. ومَبْلغُ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته. فسميت البلاغة بلاغة ، لأنها تُنْهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه." والبلاغة عنده كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة، ومعرض حسنٍ.

وقال ابن وهب: وحدها عندنا (أي حد البلاغة): **أنها القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان.** ينظر كتابه البرهان في وجوه البيان

وبلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. فلا تتحقق البلاغة عند أرباب المعاني إلا إذا كان الكلام فصيحا مطابقا لما يقتضيه حال الخطاب. فمثلا عندما يكون المخاطب منكرا للحكم فتلك حال تقتضي التأكيد للحكم. ولذلك التأكيد اعتبار مناسب وهو مقتضى الحال. ويتفاوت مقتضى الحال بحسب المقامات والأحوال، إذ المقام الذي يدعو إلى تنكير المسند إليه أو المسند يباين المقام الذي يناسبه تعريفه، أي لا يكون هناك مقام يناسب التنكير والتعريف معا، والمقام الذي يناسب تقديمه يباين المقام الذي يناسب تأخيره. ومقام ذكره يباين مقام حذفه كذلك، ومقام إطلاق الحكم يباين مقام تقييده، وكذا مقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الاطناب والمساواة،....

أما ابن وهب الكاتب فذهب إلى أن الناس ذكروا البلاغة بأوصاف لم تشتمل على حدها، ولعله يقصد البلاغيين السابقين عليه، ومنهم الجاحظ الذي لم يحطْ في نظره بحدها رغم ذكره كثيرا من الأوصاف في حدها، يقول: "وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها، وذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدها؛ وحدها عندنا: "القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان". البرهان في وجوه البيان.

وهذا التعريف على إيجازه نجده تضمن شروطا دقيقة ليكون العبارة بليغة وهي:

- الإحاطة بالمعنى؛
- اختيار الكلام؛
- فصاحة اللسان؛
- حسن النظام.

ثم فسر لماذا هذه الشروط قائلا: " وإنما أضيف إلى الإحاطة بالمعنى اختيار الكلام، لأن العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريده، إلا أنه بكلام مرذول من كلام أمثاله، فلا يكون موصوفا بالبلاغة، وزدنا فصاحة اللسان لأن الأعجمي واللحان قد يبلغان مرادهما بقولهما فلا يكونان موصوفين بالبلاغة، وزدنا حسن النظام لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى، ولا يحسن ترتيب ألفاظه، ويصيّر كل واحد مع ما يشاكله ، ولا يقع ذلك موقعه."[1]

2) مفهوم النص:

يشكل النص نقطة التقاء العديد من المجالات المعرفية، ففي كل مجال معرفي نجد النص، لكنه ليس واحدا في كل تلك المجالات، بل متعددا تعدد طرق الاشتغال، وأشكال المقاربة، ولذلك تعددت دلالات النص من مجال معرفي لآخر.

النص لغة:

[1] - البرهان : 129 – 130.

إنّ المتتبع لمفردة "نص" في المعاجم العربية يلاحظ كثرة الدلالات التي ترتبط بها، فقد جاء في مقاييس اللغة: "نَصَّ : النُّونُ وَالصَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى رَفْعٍ وَارْتِفَاعٍ وَانْتِهَاءٍ فِي الشَّيْءِ. مِنْهُ قَوْلُهُمْ نَصَّ الْحَدِيثَ إِلَى فُلَانٍ: رَفَعَهُ إِلَيْهِ. وَالنَّصُّ فِي السَّيْرِ أَرْفَعُهُ. يُقَالُ: نَصَصْتُ نَاقَتِي. وَسَيْرٌ نَصٌّ وَنَصِيصٌ. وَمِنَصَّةُ الْعَرُوسِ مِنْهُ أَيْضًا. وَبَاتَ فُلَانٌ مُنْتَصًّا عَلَى بَعِيرِهِ، أَيْ مُنْتَصِبًا. وَنَصُّ كُلِّ شَيْءٍ: مُنْتَهَاهُ [1]...

وورد في لسان العرب لابن منظور: " نصص :النَّصُّ: رفْعُك الشَّيْءَ. نَصَّ الْحَدِيثَ يَنُصُّه نَصًّا: رفَعَه. وَكُلُّ مَا أُظْهِرَ فَقَدْ نُصَّ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: مَا رأَيت رَجُلًا أَنصَّ لِلْحَدِيثِ مِنَ الزُّهْرِي أَي أَرْفَعَ لَهُ وأَسْنَدَ. يُقَالُ: نَصَّ الْحَدِيثَ إِلى فُلَانٍ أَي رفَعَه، وَكَذَلِكَ نصَصْتُه إِليه. ونَصَّت الظبيةُ جِيدَها: رفَعَتْه ... وَكُلُّ شَيْءٍ أَظْهرْته، فَقَدْ نَصَّصْته..."[2]

ويظهر من هذه التعريفات اللغوية أن من معاني النص الارتفاع والرفع والانتهاء، والإظهار، ونسبة الكلام إلى صاحبه.

النص اصطلاحا:

أما في الاصطلاح، فقد تعددت تعريفات النص ودلالاته عند الدارسين تعدد الحقول المعرفية، واختلفت باختلاف المناهج ووجهات النظر إلى النص. ومن التعريفات الحديثة للنص في المجال اللساني والنقدي، تعريف الدكتور طه عبد الرحمان الذي عده "بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات. وقد تربط هذه العلاقات بين جملتين أو بين أكثر من جملتين[3] ." ويقترب منه تعريف الدكتور محمد مفتاح الذي اعتبر النص "وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة منسجمة"[4]، ويعرفه أيضا من خلال بعض المقومات الأساسية، فالنص عنده " مدونة كلامية، وحدث تواصلي، وتفاعلي، وله بداية ونهاية، أي أنه مغلق كتابيا، لكنه توالدي معنويا لأنه "متولد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية...وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له."[5]

أما الباحث محمد خطابي فيعرفه قائلا: " تشكل كل متتالية من الجمل كما ذهب إلى ذلك هاليداي وحسن، نصا شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات، أو على الأصح بين بعض هذه الجمل علاقات، تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو جملة لا حقة، أو بين عنصر وبين متتالية برمتها سابقة أو لاحقة. يسمي الباحثان تعلق عنصر بما سبقه علاقة قبلية، وتعلقه بما يلحقه علاقة بعدية."[6]

وتكاد مجمل التعاريف تتفق على أن أهم سمة تطبع النص هي الترابط والتماسك وإحكام النسج والبناء. وهذا ما أشار إليه كذلك الأزهر الزناد ف لما جعل النص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض. هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح "نص".

ويؤكد الدكتور صلاح فضل على ترابط النص وتنظيمه الداخلي في كل بنيوي موحد، يقول: "إن النص لا يمثل مجرد متوالية sequence من مجموعة علامات تقع بين حدين فاصلين، فالتنظيم الداخلي الذي يحيله إلى مستوى متراكب أفقيا في كل بنيوي موحد لازم للنص، فبروز البنية شرط أساسي لتكوين النص."[7]

والمتأمل في التعريفات التي قدمت للنص يسجل انطلاقها من منظورات لسانية متعددة، غير أنه يمكن النظر إلى النص أيضا من زوايا ومنطلقات أخرى، كمنطلق التصنيف حسب الجنس الأدبي، فجنس النص ونوعه معيار مهم في مقاربته وتحديده. فكل نص يعرف بالنظر إلى الجنس الذي ينتمي إليه. وباعتماد هذا المعيار تصير عملية تمييز النصوص سهلة وممكنة، كما أن مقاربتها ودراستها تصبح ميسرة. فالنص الأدبي ليس هو النص الفلسفي ولا النص التاريخي ولا هو النص النقدي...، إذ لكل نص مميزاته وخصائصه.

3) مفهوم الخطاب:

عرّف الخطاب في تراثنا بأنه "الكلام الموجَّه نحو الغير للإفهام" التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون

ويعرفه سيف الدين الآمدي في الأحكام بأنه "اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه."

---

[1] - مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1411/1هـ، 1991م. مادة (نصص).
[2] - لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، (دون رقم ولا تاريخ).(نصص)
[3] - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2 (2000م)، ص 35.
[4] - التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط/1 (1996) ص : 15
[5] - تحليل الخطاب الشعري : استراتيجية التناص ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط 3/ (1992) ص 120.
[6] - لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ص 13.
[7] - صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص، مجلة عالم المعرفة غشت 1992، العدد 164 الصفحة: 217-216.

عرفه بدر الدين الزركشي بقوله: "عرفه المتقدمون بأنه الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيء للفهم. وعرفه قوم بأنه ما يقصد به الإفهام أعم من أن يكون من قصد إفهامه متهيء أم لا" البحر المحيط في أصول الفقه ج1\126

فالخطاب هو الكلام الذي يراد به الإفهام، ثم يعمم ليكون ما فيه قصدية للإفهام عند البعض، رغم أن التهيؤ له أعم من ذلك وأوسع. ويشترط الشارع وجود المستقبل أو السامع حتى يكون الكلام خطابا، فيصبح الخطاب صلة بين المخاطب والمخاطَب.

وفي الدراسات الحديثة نجد التباسا بينا بين الخطاب والنص وصعوبة في التفريق بينهما. ويرى الباحث سعد لخذاري إلى أن ثمة خلطا بين مفهومي الخطاب والنص، " والحق أن بينهما اختلافا، فالنص، في هذه الدراسات هو مجمل القوالب الشكلية: النحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد. في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي وكذلك في تأويله. مما يفرض معرفة شروط إنتاجه وظروفه. كما أن هناك فرقا في العلامات المستعملة، فقد ينتج الخطاب بعلامات غير لغوية كما هو الحال في التمثيل الصامت أو الرسم أو الكاريكاتوري أو الخطاب الإعلاني التجاري الذي قد يقتصر على استعمال علامات غير لغوية." الدرس البلاغي العربي بين السميائيات وتحليل الخطاب، د لخذاري سعد ص144

فالمفهوم المشترك بين النص والخطاب هو الذي يكمن في كونهما مجموعة من الجمل تخضع لترابط وتبادل عن طريق الأدوات النحوية والتلاحم المعنوي، كما يرتبط الخطاب إضافة إلى ذلك بالسياق الذي يحدث فيه التخاطب من مرسل ومرسل إليه وظروف زمانية ومكانية، ويستخدم الخطاب كذلك العلامات غير اللغوية كالإيماءات والإشارات التي تؤدي دلالات متعددة، كما يمكن أن يكون الخطاب غير لغوي كما في الإعلانات والرسم أو التمثيل الصامت أو إشارات المرور.

أما الباحث المغربي طه عبد الرحمان فإن حقيقة الكلام – عنده - لا تقوم في مجرد النطق بألفاظ مرتبة على مقتضى مدلولات محددة، لأن هذا النطق قد يقعُ عَرَضًا، وإنما حقيقته كامنة في كونه ينبني على قصدين اثنين: أحدهما يتعلق بـــ "التوجه إلى الغير" والثاني يتصل "بـــ "إفهام هذا الغير".[1]

وبذلك فالخطاب، كما يقول طه عبد الرحمان، هو "كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا"[2]. وذلك ما بينه الآمدي لما قال في تعريفه: "إنه اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه".[3]

وهكذا فإن ما يحدد ماهية الكلام هي العلاقة التخاطبية وليس العلاقة اللفظية وحدها "[4]، فلا كلام بغير تخاطب، ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة "المخاطِب" (بكسر الطاء) ولا مستمع من غير أن تكون له وظيفة "المخاطَب" (بفتح الطاء)". وهذه العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب لا تنحصر في عملية نقل مضمون القول من أحد الطرفين إلى الآخر، لأن هذا النوع من النقل يمكن أن تقوم به الآلة، ومعروف أن الآلة لا تنسب إليها أوصاف "الخطاب". فالمتكلم ليس ذات ناقلة "وإنما هو ذات مُبَلِّغَة"، وحسب طه عبد الرحمان فـــ "المنطوق به الذي يستحق أن يكون خطابا هو الذي يقومُ بتمام المقتضيات التعاملية الواجبة في حق ما يسمى "الحِجاج"، إذ حدُّ الحجاج أنه كل منطوق به مُوجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها."[5]

ثم إن حقيقة الخطاب ليست مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هي "**العلاقة الاستدلالية**" وليست العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب من غير أن تكون له وظيفة "المدعي" ولا مُخَاطَب من غير أن تكون له وظيفة "المعترض"".[6]

تحليل الخطاب:

جاء في معجم (Dictionnaire raisonne de la theorie du langue) ل "جوليان كريماس" و" جوزيف كورتاس" أن لفظة تحليل تعني في سميائيات هلمسيلف : كل الإجراءات المستعملة في وصف موضوع سيميائي ، وهي ميزة خاصة، إنها نقطة الانطلاق للكشف عن المعنى، وهو يتماشى مع إجراءات محددة يضبطها المحلل، للوصول إلى هدف معين. في حين كما يردف صاحب المعجم: " في أول مقاربة، نعرف مصطلح

[1] - المرجع السابق 214.
[2] - المرجع السابق 214
[3] - الآمدي الإحكام في أصول الأحكام ج1\136.
[4] - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان ص 215.
[5] - المرجع السابق 216.
[6] - المرجع السابق 226.

الخطاب، مع الاحتكام للسميائيات، والنظر إليه في إطار نظرية الخطاب التي تتكلم بلسان الحقائق السيميائية (علاقة، وحدات، عمليات...) يقع على المحور الأفقي للغة. إذ يشير الخطاب إلى اثنين من التشكيلات السيميائية (العالم اللفظي) يندرج تحته الشكل اللغوي الطبيعي، وعالم طبيعي مصدره سيميائي غير لغوي..." السابق 102

ومن أجل هذا كما ورد عند **دومينيك منغنو** : " نرى من المستحسن اعتبار تحليل الخطاب المخصص الذي بدل أن يقدم على التحليل اللغوي للنص في ذاته أو على التحليل السوسيولوجي أو النفساني لمحتواه، يسعى إلى مفصلة (Articular) تلفظه مع موقع اجتماعي بعينه، وهكذا يجد تحليل الخطاب نفسه حيال أنواع الخطابات المشتغلة في قطاعات الفضاء الاجتماعي (المقهى، المدرسة، المحل التجاري...)، أو في الحقول الخطابية (السياسي، العلمي..). دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد بحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008، ص 19.

فالنص - حسب منغنو – هو جزء من الخطاب بعيدا عن السياق، لذلك فإن تحليل الخطاب يدرس التلفظ في بيئته المحيطة به، والتي ساهمت في بنائه وفق ظروف اجتماعية، وعبر سياق خاص، لأنه يهتم بالكلام الحيوي في المقهى والمدرسة والمحلات التجارية، كما يهتم بمختلف الحقول التي تنشأ فيها الخطابات المختلفة؛ (تعليمية، سياسية، دينية، وإخبارية)، فلكل ما يحيط بالخطاب أهمية في زيادة فهمه، وتحليله، ومعرفة قوانينه، والأمور المتحكمة فيه.

أما فيما يخص النص و**تحليل الخطاب**، فيطلق : " **تحليل الخطاب بصفة عامة على العلاقة بين النص والمقام، فلا داعي للحديث إذن عن تحليل الخطاب في أبحاث تتعلق بالتداولية كأبحاث أ . ديكرو مثلا التي تتناول ملفوظات منقطعة عن السياق.**

فالباحث هنا يلح على دور **السياق** في تحليل الخطاب، وفي ربط النص بالمقام المحيط به، كما أنه يستبعد تلك الأبحاث التي تدرس الملفوظات بعيدا عن السياق(Contexte).

فـ**تحليل الخطاب هو دراسة للخطاب**: " أي **دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقيين في وضعيات حقيقية**، فإنه يبدو الفن الذي يدرس اللغة باعتبارها نشاطا راسيا في مقام ومنتجا لوحدات تتجاوز الجمل، وباعتباره استعمالا للغة لغايات اجتماعية تعبيرية وإحالية. وفي هذه الحالة يعمل تحليل النصوص على تعايش مقاربات شديدة التنوع : تحليل الخطاب، وإثنية التواصل، واللسانيات الاجتماعية التفاعلية." **دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب ص 44.**

لقد بدأ تحليل الخطاب: "يستقطب فروع اللسانيات المتخصصة، وصار يوظفها توظيفا خالصا لبناء منظومته المعرفية بإطاريها النظري والتطبيقي وصولا إلى خطاب مكين متماسك. وليس ثمة شك في هذه المنزلة التي يقصد محللو الخطاب إلى تأسيسها، ذلك أنه مجال معرفي حاضر في كل زمان ومكان، ويمارسه الناس يوميا في معظم فعاليات حياتهم وممارستهم القولية والفعلية، بدءا بالعلماء وانتهاء بعامة الناس... لقد صار تحليل الخطاب نشاطا يوميا نمارسه بوعي حاضر أو كامن، إنه زمن تحليل الخطاب". وليد العناني: تحليل الخطاب وتعليم مفردات العربية للناطقين بغيرها، البصائر، مجلة علمية محكمة، مج 13 ع 2، آذار 2010م، جامعة البترا، الأردن ص 93.

عناصر الخطاب:

عناصر الخطاب السياقية إجمالا هي:

المرسل – المرسل إليه – العلاقة بين طرفي الخطاب – ظروف التخاطب – المعرفة المشتركة ....

لقد أعطى العناني صياغة شكلية للخطاب وفق ثلاثة فروع متضافرة:

- ✓ شكل الخطاب؛
- ✓ مضمون الخطاب؛
- ✓ سياق الخطاب ومرجعيته؛

ويختلف تحليل الخطاب من خطاب إلى آخر فإذا "كانت هذه هي المنظمات العامة لأي خطاب إلا أنها تتفاوت وتتمايز شكلا وبناء وفقا لطبيعة الخطاب وقصده. فالخطاب الأدبي مختلف عن الخطاب العلمي، والخطاب الديني مختلف عن الخطاب القانوني... الخ، ومن ناحية أخرى يفترق السردي والوصفي عن الخطاب الإقناعي الحجاجي، ويختلف الخطاب الإقناعي عن الخطاب التمثيلي والمقارِن...

فلكل خطاب خصوصياته الشكلية والمعنوية، فإذا كان من سمات الخطاب العلمي الدقة والوضوح ، فإن الخطاب الأدبي من أهم سماته الجوهرية الخيال والمجاز والتصوير ...

بينما يتسم الخطاب الديني بالوعظ والتركيز على الهداية وتبيين الخير من الشر بأساليب مختلفة، تتنوع بين الحجاج والتأثير بالقصة أو العبرة أو المثال وغير ذلك.

وعلى محلل الخطاب أن يدرك خصائص المجال الخطابي الذي يعمل عليه مع المنهج المناسب لتحليله.

وقد أعطى الاتجاه الوظيفي دفعا قويا لتحليل الخطاب من خلال استعمال اللغة ، كما هو عند بعض الباحثين، وذلك بتجاوز وصف الخطاب وصفا شكليا، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند بيان علاقة وحدات الخطاب بعضها البعض وتحليلها. والدعوة إلى ضرورة الاعتناء بعناصر السياق ومدى توظيفها في إنتاج الخطاب، وفي تأويله.

البلاغة وتحليل الخطاب:

لقد كانت البلاغة منذ نشأتها مهتمة بالخطاب والتخاطب، فالبلاغة اليونانية اهتمت منذ ظهورها بالخطابة، واتضح هذا أكثر في أعمال أرسطو الذي صنف الخطاب الحجاجي إلى أنواع وبين ما يناسب كل نوع. وإذا عدنا إلى البلاغة العربية القديمة، وجدناها قد نشأت في أحضان الخطاب، ولذلك نصادف عند البلاغيين العرب ملامح لتحليل الخطاب في معظم مباحثهم.

وفي البلاغة الجديدة زاد الاهتمام أكثر بحقل الخطاب، خاصة بعد أعمال البلاغيين الجدد كبيرلمان وأولبريخت، مما أدى إلى ظهور حقل تخصصي، يجري الاشتغال عليه من قبل عدد من الدارسين المحدثين، يصطلح عليه: **"البلاغة وتحليل الخطاب"**، رغبة منهم في إيجاد أفضل مقاربة لخطابات متعددة. وفي المحاضرات الموالية توضيح لملامح تحليل الخطاب في البلاغة اليونانية ثم في البلاغة العربية القديمة وأخيرا في البلاغة الجديدة.

المحاضرة : الثانية

ملامح الاهتمام بتحليل الخطاب في البلاغة اليونانية

تمهيد:

لقد قارب اليونانيون القدامى الخطاب بشتى أنواعه انطلاقا من البلاغة، واستعانوا بمختلف الحقول المجاورة المساعدة على تطوير هذا التحليل وإثرائه. إذ اهتموا بالبلاغة والحجاج، فرأوا أن الضرورة تحتم تعلم الخطابة، وفن التأثير على المستمعين وكسب الجدل بأي وسيلة ممكنة. فالبلاغة (الريطوريقا)، في نظرهم هي الفضيلة وهي أسمى العلوم. وقد كان الوقت حينئذ في صالح «السفسطائيين»، الذين كانوا يستخدمون الخطابة لحاجات عملية ونفعية . ويعد جورسياس فارس هذا الميدان،

ويعود ظهور النظريات الأولى في الحجاج تقريبا إلى ما بين (450 – 440 قبل الميلاد) ، وذلك في صقلية اليونانية. والاسمان المرتبطان بهذا التأسيس هما: كوراكس Corax وتلميذه تزياس Tisias

البلاغة اليونانية ولدت في سياق قضائي جدلي

البلاغة اليونانية ولدت في سياق حجاجي (قضائي)، ومن رحم التفكير في الطرق التي تسمح بوضع طريقة فعالة للكلام. وقد بلغ الخطاب الحجاجي مستوى متقدما قبل أرسطو. وقد كان لسقراط (469 – 399 ق الميلاد) دور في الخطابة، وكان يرى ضرورة إخراج الخطابة من أروقة المحاكم الخصومات إلى صلب الحياة الاجتماعية ، ومن الخطابات التي توجه إلى الجماهير إلى الخطابات الفردية.

البلاغة عند أفلاطون:

اعترض أفلاطون على الخطابة ودافع عن الجدل، فالبلاغة التي يحبذها أفلاطون (428 – 347 ق الميلاد)، هي ما يسمى بلاغة المحاضرة التي تشتغل أساسا بموضوعات فلسفية. وإذا كان أفلاطون قد "اعترض على الخطابة لميوعة الأفكار التي تتغذى منها، فإنه قد دافع في مواطن عديدة من كتاباته عما سماه **الجدال** الذي هو نوع من الحوار بين طرفين فقط يجمعهما ضرب معين من السمو الفكري والارتفاع عن رأي العامة. فأفلاطون كان محبا للحقيقة ومدافعا عنها ، وعن كل ما يمت إلى الحقيقة بصلة، معارضا بذلك كل من يستعملون البلاغة لتضليل الناس أو الكذب و الاحتيال عليهم. ولهذا فقد سن قواعد وضوابط بلاغية يلتزم بها الخطيب حتى تكون بلاغته حكيمة ومتماشية مع الحقيقة والمثالية في الغرض.

أرسطو وتطور البلاغة والحجاج:

اهتم أرسطو (384 – 322 قبل الميلاد) بالبلاغة ، فهو يرى أن البلاغة "... قوة تتكلف بالإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة." وقد كان يدافع عن البلاغة كوسيلة للإقناع، ولفرض الآراء مع تحقيق النفعية في التخاطب الذي به تسترد الحقوق، وبه تدفع المظالم، نظرا لدورها في توصيف الإقناع وضبط حدوده وآلياته ووسائله.

فالبلاغة تسعى لإقناع السامع والتأثير فيه، حسب أرسطو، ولا بد أن يكون التخاطب مؤسسا على عدة أطراف، من المخاطِب، والمخاطَب، والموضوع الذي عليه تتم عملية التخاطب والتواصل.

وبهذا أصبح للبلاغة نظرية منظمة، ولم تعد البلاغة تعرف بأنها ببساطة فن الإقناع ، وإنما القدرة على الكشف بتدبر عند كل حالة، عما يمكن أن يكون مقنعا فيها.

أرسطو وسع مجال الحجاج

لقد أرسى أرسطو بذلك صرح البلاغة اليونانية ، ووسع مجال الحجاج، حتى وصف بأنه موجود في كل الممارسات الخطابية، واستطاع أن يوسع حقل الخطابة لأبعد من المجال القضائي ليشمل كل الأماكن التي يستعمل فيها الحجاج، وذلك بخلاف صناع الكلام الذين

حصروه في المحكمة والأفلاطونيين الذين حصروه في النقاش الفلسفي. كما وصل إلى حد التنظير لها، فبعد أن كانت الخطابة هي فن الإقناع، صارت مع أرسطو تصف هذا الإقناع وتُنَظِّر له؛ وهذا ما أدى بالغربيين في العصر الحديث إلى أن ينهلوا من أعمال أرسطو الحجاجية .

وكان أرسطو أول من وضع قواعد للجدل، فالجدل في تصوره كان يمارس في أثينا دون أن تكون هناك تآليف تصف قواعده، لذلك أرسى أرسطو في دراسة هذه الممارسة القولية المفاصل التي رأى وبنى أصول هذا المجال الحجاجي دون أن يضطر إلى مراجعة ما كتب في الموضوع قبله.

لم يكن هم أرسطو دراسة البلاغة كوسيلة للإقناع ، بل وكذلك دراسة كيفية هذا الإقناع بالتقنين له وجعله في نسق منظم يلم بكل توصيفات القول الحجاجية وغير الحجاجية، كما أنه كان كثيرا ما يلجأ إلى التقسيم المنطقي لتسهيل الدراسية وجعلها وفق أنساق تشكل بنية متكاملة.

الحجاج عند أرسطو مكون من مكونات الخطاب

نظرت البلاغة الأرسطية إلى الحجاج كمكون من مكونات الخطاب، يتشكل حسب تشكله، وتتغير وظائفه وطرقه الاستدلالية بتغيره :

- يتشكل الحجاج إذن حسب تشكل الخطاب،
- وظائف الحجاج تتغير حسب نوع الخطاب،
- الطرق الاستدلالية تتنوع حسب نوع الخطاب الحجاجي.

<u>أنواع الخطاب عند أرسطو</u>

يتناول أرسطو الحجاج من زاويتين متقابلتين:

- زاوية بلاغية إذ ربطه بالجوانب المتعلقة بالإقناع؛

- زاوية جدلية، فاعتبره عملية تفكير، تتم في بنية حوارية، وتنطلق من مقدمات، لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة.

وتتكامل النظرتان في التحديد الذي يقدمه أرسطو لمفهوم الخطاب؛ إذ يبنيه انطلاقا من أنواع الحضور، ومن الرغبة في الإقناع،

يحدد أرسطو الخطاب في ثلاثة أنواع:

- **النوع الاستشاري،**
- **النوع القضائي،**
- **النوع القيمي.**

ترتكز الاختلافات الزمنية والمقامية والمقصدية والقيمية بين هذه الأشكال الثلاثة للخطاب بالأساس على الاختلاف بين أنواع الحضور. فكل نوع خطابي يماثل نوعا خاصا من المستمعين؛ وهذا يحتم على الخطيب أن ينوع تقنياته الحجاجية والخطابية حسب كل نوع. فلذلك يلجأ الخطيب إلى:

1- الخطاب الاستشاري حين يتجه إلى جمع عام، قصد التداول حول رفع ضريبة أو إعلان عن حرب أو توقيع معاهدة، ويبني حجاجه على المنهج الاستقرائي، وعلى (المثل) كحجة نموذجية فيستقرئ التاريخ ويستحضر الأمثال، التي تمنح خطابه القوة على التأثير في الحضور ودفعهم إلى اتخاذ القرارات الحاسمة.

2 – بينما يلجأ إلى المنهج الاستنباطي، وإلى القياس بالأساس، حين يخاطب القضاة، العالمين والمتمرسين، يحتاج إلى استدلالات أكثر صرامة؛

3 - ويوظف الخطيب الخطاب القيمي، ويستخدم أساليب السرد والتعظيم، حين يركز على إثارة الأشخاص، أو الأحداث المعروفة سلفا، ولا يكون في حاجة إلى كسب المستمعين، لأنهم ينخرطون في الخطاب منذ البداية.

فلكل خطاب إذن، في هذا المنظور الأرسطي ، مقام خاص، وزمان محدد، وقيم يستند عليها؛ ولكل مقام نوع خاص من الجمهور؛ ولكل جمهور ضوابطه ومحدداته.

إلا أن هذا التصور الأرسطي للجمهور هو تصور تجريدي، لأن أنواع الجمهور يمكن أن تتنوع في المقام الواحد. وبالتالي فعلى الخطيب التنويع في أنواع الاستدلال.

بنية الخطاب عند أرسطو

إن تنوع الخطابات لا يؤدي بالضرورة، إلى تعدد في البنيات؛ ذلك أنه مهما كان نوع الخطاب، ومهما كان نوع الحضور، فإن الخطيب يتبع خمس مراحل متفاوتة الأهمية هي: **(الإعداد، التنظيم، البيان، الفعل، الذاكرة).** غير أن البلاغيين ركزوا على المراحل الثلاث الأولى، ووضعوا مرحلتي الفعل والذاكرة على هامش البلاغة، لكونهما لا تهتمان إلا بالإنجاز الشفهي للخطاب.

ا) الإعداد:

يمثل الإعداد المرحلة الأولى والأكثر تعقيدا في إعداد الخطاب، وهي مرحلة البحث عن الأفكار والحجج. ففي ما يخص نوع الحجج وطبيعتها، وعلاقتها بالجمهور، يميز أرسطو بين ثلاثة مستويات حجاجية: (**الإيثوس، الياتوس، اللوغوس**) في علاقتها بالأبعاد الثلاثة للفعل الخطابي: (الخطيب، المستمع، الخطاب).

يصف **الإيتوس** الخصائص المتعلقة بشخصية الخطيب، والصورة التي يقدمها عن نفسه، إذ يظهر في كل الأحوال كُفْأً وشريفا؛ ويكيف مع المقامات، فيكون شديدا أو مرحبا، عنيفا أو متفهما، رحيما أو قاسيا.

ويشكل **الياثوس** مجموعة انفعالات يرغب الخطيب في إثارتها لدى مستمعيه (رحمة، كراهية، غضب، خوف...)في حين يمثل **اللوغوس** الحجاج المنطقي، الذي يمثل الجانب العقلاني في السلوك الخطابي، ويرتبط بالقدرة الخطابية على الاستدلال والبناء الحجاجي.

الحجج الخطابية عند أرسطو

اهتم أرسطو بالحجج الخطابية، فميز فيها بين صنفين من الأدلة:

- **أدلة غير تقنية (أو جاهزة)**: وهي أدلة توجد في الوقائع والنصوص باستقلال عن الخطيب؛ وتشمل النصوص القانونية، والشهادات القديمة؛ والسلطة المعنوية للشخصيات العظمى؛ والاستشهاد بواقع أو احتمالات الوقائع؛ والعقود والاتفاقيات المتعددة بين الخواص؛ والاعترافات والوصايا.
- **أدلة تقنية**: يمنحها الخطاب، وقدرات الخطيب وإبداعه؛ وتتحقق في "المثل" بالمعنى العام للحجة الاستقرائية؛ و"القياس الإضماري" الاستنباطي المؤسس على مقدمات محتملة، والمؤدي على نتائج شبيهة.

نخلص إذن إلى أن مرحلة **الإعداد** تضع الخطيب أمام تنوع في الآليات والتقنيات الحجاجية، وتجعله يتأرجح بين :

- الاستدلال العقلاني وبين المؤثرات الانفعالية؛
- بين الأدلة السياقية وبين الأدلة الخطابية،
- بين المواضع العامة وبين المواضع الخاصة.

والخطيب الناجح هو من يحسن الانتقاء.

ب) التنظيم:

مرحلة التنظيم توصف عند البلاغيين بكونها" فنا لتنظيم الحجج أو تجميعها وفق تصميم خاص معدٍّ سلفا"؛ أي أن الخطيب يجد أمامه عدة تصاميم للخطاب (تصاميم الإنشاءات، الرسائل التجارية، التقارير المهنية...)، وما عليه إلا أن يكيف حججه مع التصميم الملائم.

وفيما يلي خطوط عريضة للتصميم المعيار الأكثر استعمالا في الخطابات القديمة:

- **الاستهلال**: جزء افتتاحي يستهدف به الخطيب الاستحواذ على انتباه السامعين، وتقديم التصميم العام لخطابه.

- **السرد**: يشكل مرحلة مهمة جدا في الخطاب القضائي أو القيمي، وقد يلجأ إليه لتقديم المثل في الخطاب الاستشاري.

- **الاثبات**: ويمثل الخطوة التي يتم فيها الإدلاء بالحجج؛ ولا تخرج البنية الداخلية لهذا الجزء في الغالب عن الخطوات الثلاث الآتية: (القضية – الحجاج – الجدال)

- **الاستطراد**: يتموضع غالبا بعد الاثبات، ويلعب فيه الخطيب على وتر العاطفة، بالتسلية أو بإثارة السخط أو الشفقة؛ وتتم العملية بواسطة حكاية أو وصف ينفصلان عن الموضوع.

- **الخاتمة**: ينتهي الخطيب بنص ختامي، بارع الأسلوب، يركز فيه على العاطفة.

ج) البيان:

يتحدد البيان في مجموع التقنيات المرتبطة بكتابة الخطاب ودراسة الأسلوب، ويمتد من إعداد الخطاب إلى الكتابة.

الطرق الاستدلالية

اهتم البلاغيون بعلاقة الحجاج بالتفكير المنطقي، وبالطرق الحجاجية في الاستنتاج وفي بناء الأحكام وإثباتها، ولا حظوا أن الاستنتاجات الحجاجية لا تنبثق بالضرورة من التفكير المنطقي. وقد وقف البلاغيون أمام هذا التنوع في العمليات الاستنتاجية، واختزلوه في نوعين رئيسيين: الاستنباط والاستقراء، و الاستنباط والقياس.

أنواع الحجج

- **حجج شبه منطقية**: وتتميز بأنها تقدم مظهرا أكثر دقة من أغلب الحجج الأخرى، وإن كانت تظل ، مع ذلك، قابلة للدحض، ومن أهم هذه الحجج: (التعريف الذي يمثل مقدمة للحجاج – التعارض – البرهان ذو الحدين)

- **حجج قائمة على المنطق الصوري: وهي حجج تملك بنية صورية صحيحة خالية من الأخطاء، وهي الحجج التي تكون حقيقة مقدمتها المنطقية تضمن صواب الاستنتاج. مثال:**

1- جميع البشر معرضون للفناء.

2- سقراط إنسان.

3- سقراط فان.

- **الحجج التجريبية**: حجج تقوم على الوقائع، وعلى تجارب ملاحظة أو معيشة،

- **الحجج المجربة**: لا تبحث هذه الحجج عن الإقناع بواسطة الطرق العقلانية، وإنما يدفع المتلقي أو الحضور إلى مجال القيم الذي يندمج فيه، والاستجابة من ضعف تجربته الجدلية.

ونخلص مما سبق إلى ما يلي:

ا - الخطاب عند أرسطو أنواع ثلاثة؛ ولكل خطاب مقام خاص وزمان محدد وقيم يستند عليها، ولكل مقام نوع خاص من الجمهور، ولكل جمهور ضوابطه ومحدداته.

ب) لذلك على الخطيب أن يخضع لنوع المقام ونوع الحضور؛ فالخطيب يجد نفسه أمام ثلاثة أنواع معيارية، وليس بوسعه إلا أن يلبسها للمحددات الخارجية.

ج) لكل الخطابات رغم اختلافها نفس البنية ونفس التصميم؛ لذلك يتبع الخطيب نفس الخطوات في بناء خطابه؛ وإن اختلفت الطرق الاستدلالية والجهات الزمنية.

د) تختزل العمليات الاستنتاجية في نوعين رئيسيين: الاستنباط والاستقراء.

هـ) اهتم البلاغيون في هذا التصور الحجاجي الأرسطي بأنواع الحجج وميزوا فيها بين الحجج المنبثقة من المنطق الصوري، وبين الحجج شبه المنطقية، والحجج التجريبية، والحجج الني لا تقوم على الأسس العقلانية؛

لكنهم أهملوا الجوانب النصية والسياقية لهذه الأنواع المختلفة من الحجج.

ويخلص الدكتور محمد طروس إلى أن " النموذج الحجاجي البلاغي التقليدي، نموذج مثالي معياري؛ يسعى بالأساس إلى محاربة الألاعيب الخطابية، ودحض المغالطات السفسطائية.

من هنا انحصر هم البلاغة التقليدية في وضع معايير للخطابات ومقاماتها وطرقها الاستدلالية، والتمييز بين المقبول من الحجج ، وبين ما يصدر عن نوايا الاستغلال والتسخير. بمعنى أنها كانت تؤسس لشكل خطابي معياري، وترسم الخطوط الواجب على الخطيب اتباعها، بعيدا عن أي وصف أو تفسير للممارسة الخطابية الفعلية.

إنها تقعد لما ينبغي أن يكون وتتجاهل الكائن والمحتمل، بصورة يصبح معها الخطاب جاهزا ومتعاليا، ويصبح الحجاج ركاما من الحجج والطرق الاستدلالية، قد تفيد في الشرح التعليمي لنصوص وأمثلة مصنوعة لإيضاح الغايات التصنيفية، وهذا لا يمكنها من وصف التفاعلات الخطابية وتفسير آلياتها وطرق اشتغالها." د. مجمد طروس، النظرية الحجاجية ص42

ومع ذلك فلا يمكن أن ننكر أن أرسطو قد كان سباقا إلى التنظير للخطاب الحجاجي ولأنواعه وبنيته وطرقه الاستدلالية. وهذا ما أدى بالغربيين في العصر الحديث إلى أن ينهلوا من أعمال أرسطو الحجاجية، وإلى إحياء بلاغة الحجاج الأرسطية وبعثها من جديد وبناء صرح البلاغة الجديدة على أسس تلك البلاغة.

المحاضرة الثالثة

ملامح تحليل الخطاب في البلاغة العربية القديمة

تقديم:

اهتم البلاغيون العرب القدامى منذ بداية نشأة البلاغة العربية مع المتكلمين واللغويين والمتأدبين والنقاد بالخطاب، سواء أكان خطابا قرآنيا أم خطابيا أم شعريا. وقد زاد هذا الاهتمام عند البلاغيين المؤسسين والمنظرين كالجاحظ وابن وهب وتعمق أكثر مع عبد القاهر الجرجاني.

فالنص والخطاب كانا حاضرين في تحليلات اللغويين والبلاغيين العرب، كما يقول منذر عياشي: "لقد انطلق الباحثون العرب في درسهم اللغوي من النص - تنظيرا وممارسة – فجاءت علومهم في هذا الميدان تمثيلا حضاريا له. وكانت نظرتهم للأسلوب – في جملة تلك العلوم – أنه أثر من آثار النص، ونتيجة من نتائجه الدالة عليه، فأسسوا بذلك بنيان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضارة النص"[1].

ملامح تحليل الخطاب في البلاغة العربية القديمة :

لقد أثبتت الدراسات الحديثة وجود إرهاصات لتحليل الخطاب في البلاغة العربية القديمة. فإلى جانب اهتمام البلاغيين العرب القدامى بالخطاب القرآني في دراساتهم الإعجازية، وهي دراسات في تحليل الخطاب القرآني نجدهم أيضا يُعرِّفون بالأساليب، وفي سياق ذلك التعريف يستشهدون لها ولأنواعها ولأغراضها بنصوص وخطابات إما من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو من الشعر العربي أو النثر وكلام العرب، وغالبا ما يشتغلون على تلك النصوص المستشهد بها تحليلا وتفسيرا ويبينون ما تنهض به تلك الأساليب من وظائف نصية و تعبيرية ودلالية وحجاجية إقناعية.

ومن المعروف أن الدرس اللغوي العربي، نحوا وصرفا ولغة، قد بدأ مبكرا وتطور بعد عصور التدوين، بينما تأخر التنظير البلاغي إلى حوالي القرن الثالث الهجري. وإذا كان التنظير البلاغي العربي قد جاء متأخرا إلى ما بعد عصر التدوين، أو إلى عهد الجاحظ، فإن الإنجاز البلاغي العربي كان قديما، بدأ مع بداية الإبداع العربي، أي منذ العصر الجاهلي. وهذا الإبداع لم يكن مقتصرا على الشعراء ولا الخطباء ولا الرجاز ولا الكهان، بل شمل غيرهم. فالعرب كانوا أهل بلاغة وفصاحة حتى في محادثاتهم العادية، وفي تحاورهم اليومي. وقد تضاعف هذا الإنجاز البلاغي في صدر الإسلام وفي العصرين الأموي والعباسي الأول مع الفرق الكلامية، والأحزاب السياسية المتصارعة التي سخرت - من ضمن ما سخرت في معاركها وخصوماتها - الشعر والخطابة والمناظرة والرسائل، وكانوا يعلمون المنتسبين إليهم أساليب الخطابة والمناظرة، وطرق الإقناع والتأثير في المخاطبين، وبدا ذلك واضحا عند المعتزلة، كما يتبين من صحيفة بشر بن المعتمر، التي نقلها إلينا الجاحظ وأبو هلال العسكري، وهي أول أثر بلاغي ونقدي مدون.

"وكان أبو بشر شيخا من شيوخ المعتزلة، عاش الشطر الأطول من حياته في القرن الثاني الهجري، فعاشر طبقة اللغويين والنحاة من العلماء بالشعر كأبي عبيدة والأصمعي وعددا من كبار الشعراء المحدثين كأبي نواس ومسلم بن الوليد. وقد تضمنت صحيفته توجيهات إلى الخطباء والمتكلمين للتأثير في خصومهم، ركزت على الجانب البلاغي المؤثر في الحجاج والمحاورة. وفيها يتحدث عن المتكلم وما ينبغي أن يتوفر له من حسن الاستعداد للكلام وما ينبغي أن يتوفر لكلامه من الجمال والإمتاع وما ينبغي أن يسود من الملاءمة التامة بين الألفاظ والمعاني وبين الكلام وطبقات السامعين.[2]

وقد ترددت آراء بشر وما جاء في صحيفته الحجاجية عند البلاغيين العرب الأوائل، كالجاحظ الذي يُعد من أوائل المؤسسين للنقد والبلاغة في تراثنا العربي القديم. فالجاحظ في البيان والتبيين قام بالتنظير للخطابة وبين ما يجعل الخطيب مقنعا ومؤثرا في المخاطبين، بل نبه على ما

[1] - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى\ 2002 ، ص 28- 29 بتصرف
[2] - ينظر شوقي ضيف: 369

يحول بينه وبين جمهوره من عيوب، مما له صلة باللباس أو الحركة أو اللسان. فهو "الذي انتبه إلى أن اللغوي، لا يستطيع مهما أوتي من معرفة أن يُحاجِجَ في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعنْ بعلم الكلام، وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني."[1]

يعد كتاب "البرهان في وجوه البيان" لأبي الحسين بن وهب الكاتب من أهم الكتب التي اهتمت بالخطاب مهما كان نوع ذلك الخطاب. وقد نسب هذا الكتاب خطأ لقدامة بن جعفر تحت عنوان "نقد النثر"، لكن المحققين أثبتوا فيما بعد أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة.[2]

وقد ذكر المؤلف في مقدمة البرهان أن كتابه يأتي استجابة لأحد حكام عصره الذي طلب منه بيان ما قصر في بيانه الجاحظ من وظائف البيان وأقسامه

وفي باب "العبارة" وباب "الكتاب"، أي في الوجه الثاني والوجه الثالث من أوجه البيان عند ابن وهب[3] نجد مباحث مهمة في البلاغة والكتابة والشعر والخطابة والجدل، تناولها ابن وهب من زوايا عدة، تواصلية وحجاجية وأجناسية ونقدية وغيرها، مما جعل كتابه جامعا بين بلاغة الشعر وبلاغة النثر وبين مباحث التخييل ومباحث الحجاج والتواصل والتداول، لذلك فالكتاب يمكن تصنيفه بدون تردد ضمن كتب البلاغة العامة.

ففي باب تأليف العبارة - وهو من أهم المباحث عنده - ، بين ابن وهب أنواع العبارة في لسان العرب وأنها إما شعر أو نثر، يقول: " اعلم أن سائر العبارة في لسان العرب إما أن يكون منظوما أو منثورا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام، فالشعر ينقسم أقساما: منها القصيد وهي أحسنها وأشبهها بمذاهب الشعراء، ومنها الرجز وهو أخفها... ومنها المسمط... ومنها المزدوج."[4]

ثم بين ابن وهب أن البلاغة والإيجاز من خصائص الشعر والنثر، إلا أن ما يجوز للشاعر من إخلال بهما لا يجوز للكاتب، وذلك لأن النثر مطلق غير محصور على خلاف الشعر فإن القافية والوزن يقيدانه،[5] يقول: "في الشعر والنثر تقع البلاغة أو العي، والإيجاز والإسهاب، إلا أن البلاغة والإيجاز إذا وقعا في الشعر والقول قضى الشاعر بالفلج[6]، والعي والإسهاب إذا وقعا في الشعر والقول كان الشاعر أعذر، وكان العذر من المتكلم أضيق، وذلك لأن الشعر محصور بالوزن ، محصور بالقافية، فالكلام يضيق على صاحبه، والنثر مطلق غير محصور، فهو يتسع لصاحبه."[7]

2) مباحث البلاغة العربية وتحليل الخطاب:

انطلق البلاغيون العرب القدامى إذن من نتائج الدراسات النحوية والصرفية واللغوية عموما. وهذا ما يؤكده عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز لما تحدث عن أهمية النحو في البلاغة.[8]

وقد نتج عن ذلك أن البلاغةَ العربيةَ ارتبطت منذ بداية نشأتها بالخطاب فاكتسبت بعدا تحليليا أسلوبيا ولسانيا. وقد عمَّق ذلك البعد ارتباط العرب، منذ وقت مبكر، بالنص والخطاب. فبعدما كانوا مرتبطين بالنص الشعري في العصر الجاهلي، صاروا متعلقين بالخطاب القرآني، وزاد من ذلك التعلق والارتباط، ما تميز به هذا الخطاب من إعجاز بياني، شغل البلاغيين الأوائل بالبحث عن أسراره الأسلوبية. فكانت الدراسات الإعجازية المبكرة مع المتكلمين كالرماني والخطابي والباقلاني ثم عند البلاغيين كعبد القاهر الجرجاني هي دراسات في أسرار الإعجاز البياني للخطاب القرآني.

---

[1] - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول 28.

[2] - البرهان في وجوه البيان، تأليف أبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة، تنظر مقدمة المحقق.

[3] - : "البيان على أربعة أوجه. فمنه بيان الأشياء بذواتها، وإن لم تبنْ بلغاتها؛ ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللب، ومنه البيان باللسان ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغُ من بعُدَ وغاب."

[4] - البرهان: 127.

[5] - وقد ذكر ابن وهب ما أغتفره النقاد للشاعر من ضرورات كقصر الممدود وحذف الحركة وتخفيف الهمزة وصرف ما لا ينصرف واستعمال الزحاف في الوزن . ينظر البرهان 128- 129.

[6] - الفلج : الفوز

[7] - البرهان: 127.

[8] - دلائل الإعجاز: 29 -32 وتنظر الصفحة 81.

فقد ظل المتكملون ناشطين في وضع المباحث البلاغية قصد تفسير الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ويأتي في مقدمة أبحاثهم : " النكت في إعجاز القرآن للرماني"[1]، الذي فصل القول في البلاغة وأقسامها وجعلها عشرة هي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. وجاء بعده الباقلاني الأشعري فنوَّه بنظم القرآن العجيب، وذلك في كتابه "إعجاز القرآن"، واعتبره الذروة في البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه "البديع" أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني.

فالبعد النصي والخطابي إذن قيمة معرفية هامة صاحبت أعمال اللغويين والمتكلمين والبلاغيين العرب القدامى، فمن النص ومن الخطاب انطلق اللغويون والبلاغيون العرب لتأسيس نظرياتهم في اللغة والبلاغة.

كان الدرس البلاغي عند هؤلاء البلاغيين العرب إذن يرتكز على النص \ الشاهد، لذلك جاءت مصادرهم حافلة بالنصوص القرآنية والحديثية والشعرية ومن كلام العرب. ثم إن الاستشهاد بالنص عندهم كان مصحوبا بنوع من التلقي لهذا النص، فغالبا ما نجدهم يقرؤون الشاهد ويقفون عند مستوياته اللغوية والبلاغية، مبرزين دلالاته ومقاصدَه ومظاهر الإبداع فيه. بل إن ذلك الاهتمام يزيد كلما اشتغل البلاغي على نص بعينه، وهذا ما يتجلى في أوضح صوره عند بعض المفسرين كالزمخشري في "الكشاف"، وأبي حيان الأندلسي في "البحر المحيط" والبلاغي الحديث الطاهر ابن عاشور في " التحرير والتنوير".

وقد ظهرت هذه العناية بالخطاب، في أبرز صورها وتجلياتها، أيضا في شروح الشعر العربي القديم التي ارتكزت على تحليل النص الشعري وقراءته عبر مستوياته اللغوية والبلاغية.

فالمتأمل في تلك الدراسات النصية، يجد استثمارا واضحا لأساليب البلاغة العربية في تحليل الخطاب، وفي القراءة والتفسير والتهذيب والتأويل.

وفيما يلي توضيح لذلك من خلال بعض النماذج.

[1] - ينظر النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

نموذج من التفاسير

قال تعالى :(**هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب**) غافر 13.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله مفسرا: « هذا استئناف ابتدائي إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، وقرينة ذلك قوله: (ولو كره الكافرون) غافر 14

ومناسبة الانتقال هي وصفا (العلي الكبير) غافر 12 لأن جملة (يريكم آياته) تناسب وصف (الكبير) بمعنى الغني المطلق. والآيات دلائل وجوده ووحدانيته . وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم كقوله (و الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) الرعد 12 .....

وتنزيل الرزق من السماء هو نزول المطر لأن المطر سبب الرزق وهو في نفسه آية أدمج معها امتنان، ولذلك عُقب الأمران بقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب).

وصيغة المضارع في (يريكم) و (ينزل) تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد ، وإنما يكون ذلك في الدنيا ، فتعيَّنَ أن الخطاب مستأنف مراد به المؤمنون وليس من بقية خطاب المشركين في جهنم، ويزيد ذلك تأييدا قوله: (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) غافر 14

وعُدِّيَ فعلا (يرى) و (ينزل) إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون لأنهم الذين انتفعوا بالآيات فأمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات فجُعِلَ غيرهم بمنزلة غير المقصودين بالآيات لأنهم لم ينتفعوا بها كما قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) العنكبوت 43 فجعل غير العالمين كمن لا يعقل ولا يفقه.

ولذلك ذُيلتْ إراءة الآيات وإنزال الرزق لهم بقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب) أي من آمن ونبذ الشرك لأن الشرك يصد أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة.

والإنابة : التوبة، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أن الإنابة المحصلة للمطلوب هي الإنابة المتجددة المتكررة، وإذ قد كان المخاطبون منيبين إلى الله كان قوله : (وما يتذكر إلا من ينيب) دالا بدلالة الاقتضاء على أنهم رأوا الآيات واطمأنوا بها وأنهم عرفوا قدر النعمة وشكروها فكان بين الإنابة وبين التذكر تلازم عادي، ولذلك فجملة (وما يذكر إلا من ينيب) تذييل.

وتقديم (لكم) على مفعول (ينزل) وهو (رزقا) لكمال الامتنان بأن جُعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أخر المجرور لصار صفة لِ(رزقا) فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين . وبين المعنيين بون بعيد، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلقات الفعل وإنما خولف الظاهر لهذه النكتة.

وجُعِل تنزيل الرزق لأجل المخاطبين وهم المؤمنون إشارة إلى أن الله أراد كرامتهم بالتبع لهم لأنهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى....» .

خلاصة التحليل:

إن المتأمل في التحليل والتفسير الذي قدمه الطاهر بن عاشور للآية من سورة غافر، ليدرك قيمة تكامل وتضافر مستويات الدرس اللغوي والبلاغي في تحليل الخطاب القرآني وتفسيره.

فالمفسر \ المحلل هنا ،لم يكتف بالتهذيب المعجمي لمفردات الآية، لأن المفردات واضحة، لا تحتاج إلى تهذيب، وإنما شغل بالتحليل التركيبي والأسلوبي، وبربط الصيغ الصرفية والجوانب التركيبية بدلالة الخطاب، ومقتضياته، واستعان على ذلك بالمستوى البلاغي. وقد أجاد في توظيفه، إذ على أساسه بين سياق الخطاب وعلاقته بما سبق (الآية 12)، وعلى أساسه فسر مقصدية الخطاب، والغرض من التقديم والتأخير ،وجعْلِ الرزق متعلقا بالمؤمنين، وصيغة الفعل المضارع. وهذا يبين بجلاء قيمة المستوى البلاغي في تحليل الخطاب.

وقد أسهم توظيفه للبلاغة كذلك في تحليل الآية وتفسيرها وبيان أسرار مكوناتها الصرفية والتركيبية من الناحية البلاغية. إذ بين بجدارة الأسرار البلاغية للظواهر التركيبية، لما تحدث عن الغرض من تقديم الجار والمجرور (لكم)، وأبدع في تفسير تعلق بعض المكونات ببعض في الآية، كتعلق الضمير بالمخاطب (المؤمنون)،ولماذا جعل الرزق مرتبطا بالمخاطبين \ المؤمنين وليس بغيرهم.

ويتضح التحليل البلاغي عنده في هذا النص أيضا في بيان وظيفة جملة: (وما يتذكر إلا من ينيب)، لما أشار إلى أنها تذييل. والتذييل أسلوب تحدث عنه البلاغيون ضمن مبحث الاطناب، وعدوه " اطناب تذييل"، وبينوا أغراضه الدلالية والتداولية. ولم يفت الطاهر بن عاشور الوقوف عند التناسب البياني بين الآية، موضوع التفسير، والآيات السابقة، وخاصة الآية 12.

والمثير للإعجاب في هذا التحليل أيضا حرص المفسر على ربط كل مستوى بدلالة الخطاب ومقصديته. فالمفسر\ المحلل للخطاب القرآني يستحضر خصائص الخطاب الذي يشتغل عليه، ويستحضر مقصدياته وغاياته. لذلك فهو بعدما حسم في تحديد المرسل \ المخاطِب(الله عز وجل)، صار حريصا على الوقوف عند هدايات الآيات، وما ترمي إليه من رسائل دعوية\ تبليغية للمخاطَب\ الإنسان، وبتحديد نوعية المخاطَب، وعلاقة الخطاب بالمخاطب، ولماذا خوطب بهذا الخطاب ....

نموذج من شروح الشعر

يقول المرزوقي في شرح حماسية سهل بن شيبان التي قال فيها:

مشينا مِشْيةَ الليثِ غدا والليثُ غضبانُ

بضربٍ فيه تَوْهيـ نٌ و تَخْضيع وإقْرانُ

وطعنٍ كفَمِ الزِّقِّ غدا والزقُّ ملآنُ

وضح المرزوقي التشبيه في البيت الأول قائلا: "يقول مشينا إليهم مشية الأسد ابتكر وهو جائع وكنى عن الجوع بالغضب لأنه يصحبه ."[1] وبعد ذلك أشاد بالطابع الحسي لهذا التشبيه فقال:" وهذا التشبيه أخرج ما لا قوة له في التصور إلى ماله قوة فيه."[2]

ويبدو أن المرزوقي وجد في هذا التشبيه ما ينشده في التشبيهات عموما من حسية ووضوح، فتشبيه الشاعر مشيتهم نحو عدوهم بمشية الأسد نحو فريسته وهو جائع وفي وقت مبكر، دل دلالة قوية على شجاعتهم وقوتهم وتصميمهم على إلحاق الهزيمة بهذا العدو. فالأسد مخيف في جميع أحواله إلا أنه في هذه الحال التي وصفه الشاعر أشد تخويفا: فهو جائع والوقت مبكر مما يعني أنه في كامل قواه، كل ذلك يجعل ظفره بالفريسة محققا. وصورة الأسد هذه معروفة لدى المتلقي الذي قد يجهل صنيع الشاعر وقومه بأعدائهم. كل ذلك جعل التشبيه وفق ما ينشده المرزوقي .

وقال في البيت الثالث: " كرر ذكر الزق كما كرر ذكر الليث فيما قبله. وهذا الوصف أبلغ من قول النابغة :

* وطعنٍ كإيزاغِ المَخَاضِ الضَّوارِبِ*

وهذا التشبيه أبرز ما يقل في الاعتياد في صورة ما يكثر فيه، ومثله :

فجهناهم بضرْبٍ كما يخـ ـرجُ من خُرْبَة المزادِ الماء

أي و بطعن في اتساعه وخروج الدم منه كفم الزق إذا سال بما فيه وهو مملوء. وغذا يغذو غُذُواً: إذا سال."[3]

قارن المرزوقي بين البيت، موضوع الشرح، وبين بيت النابغة الذبياني وحكم على وصف الطعن عند سهل بن شيبان بأنه أبلغ لأنه أبرز ما يقل في الاعتياد في صورة ما يكثر فيه. بينما جعل البيت الآخر مثله في بلاغة الوصف. فالشاعر وصف طعنهم لعدوهم بأنه خلف دماء تسيل كما يسيل إناء الماء الذي به ثقب وهو ملآن، وهو أمر نادر حصوله في العادة، ولكن التشبيه أبرزه وكأنه مما يكثر حدوثه. لذلك عده المرزوقي أبلغ من قول النابغة لأنه جعل الطعن كبول الناقة " ترمي به قطعة قطعة تنضحه نضحا"[4]. فالنابغة هنا جعل الدم السائل من الطعن كبول الناقة متقطعا بينما جعله سهل بن شيبان يسيل بلا انقطاع، وذلك بالطبع أبلغ في تصوير شدة الطعن، ولا يشبهه في البلاغة والدلالة على شدة الطعن، كما قال المرزوقي، إلا من شبه الدم السائل جراء الطعن بالماء السائل من مزاد به ثقب.

---

[1] – شرح ديوان الحماسة للمرزوقي1/36 - 37.

[2] - المصدر السابق 1/37.

[3] - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي 1/37.

[4] - هكذا شرحه الخليل ، العين/ وَزَغَ . وقال ابن منظور أيضا : "الإيزاغ: إخراج البول دفعة دفعة ... ينظر لسان العرب /" وزَع" و" وزَغ".

النموذج الثاني

قال المرزوقي في قول ربيعة بن مقروم:

وأَلدَّ ذي حَنَقٍ عليَّ كأنما تَغْلِي عداوةُ صدرِه في مِرْجَلِ.

" أخرج التشبيه ما لا يدرك من العداوة بالحس إلى ما يدرك من غليان القدر حتى تجلى فصار كالمشاهد. والألدُّ : الشديد الخصومة، كأنه لدَّ بالخصومة، أي أوجِر فلُدَّ به، ولذلك كان اللددُ مصدر ألدُّ، ويقال في معناه ألْنَدَدٌ. والحنقُ: شدة الغيظ، يقالُ : أحْنقَه فحَنِقَ، يقول: رب خصم شديد الخصومة ذي غيظ وغضب علي، تغلي عداوته لي في صدره غليان المرجل بما فيه إذا كان على النار، أنا دفعته عن نفسي. وجواب ربَّ هو صدر البيت الثاني"[1]

فالعداوة وغليانها في الصدر، حسب المرزوقي، لا تدرك بالحس لأنها شيء مجرد، إلا أن الشاعر بتشبيهه لها بغليان المرجل بما فيه على النار.وهو أمر معهود عند المتلقي في بيئته يبصره باستمرار. استطاع أن يجعلها محسوسة، فأخرجها بذلك مما لا يدرك بالحواس إلى ما يدرك بها، فنال إعجاب المرزوقي لأنه أصاب الغاية من التشبيهات، عنده، كما قال تعليقا على تشبيه آخر سيأتي ذكره.

وقال المرزوقي كذلك في قول الشاعر:

الشيءُ يبدؤه في الأصل أصْغرُه وليس يَصْلى بكل الحربِ جانيها

والحربُ يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصحاحُ إلى الجربى فتُعديها

"يقول: شر الحرب يعدي إعداء الجرب، فترى الكاره لها يلتحق بها وإن كان غير حازم لها وتلقى البعيد منها يصطلي بحرها وإن لم يذكها ولم يشيع موقدها. وفي هذا التشبيه خروج المشبه من الكمون إلى الظهور، ومن الخفاء إلى البروز، حتى يتجلى لمتأمله والمفكر فيه، على بعده في التصور، تجلي القريب في العرف والاعتياد، وهذا هو غاية المراد من التشبيهات"[2].

[1] - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي1/64

[2] - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي1/407-408.

المحاضرة الخامسة:

أساليب علم البيان في البلاغة العربية وتحليل الخطاب

اتضحت معالم علوم البيان في البلاغة العربية بعد تأليف عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة رغم أنها كانت معروفة عند البلاغيين واللغويين المتقدمين. هذه الأساليب نجد في كتب البلاغة اهتماما بتعريفها وتوضيح مكانتها وأهم وظائفها وأغراضها. وهذا ما تم التركيز عليه في تدريس البلاغة في المؤسسات التعليمية. لكن هناك جانب مهم في هذه الأساليب قلما يفطن إليه الطلاب والمتعلمون رغم أن البلاغيين كانت لهم وقفات مهمة معه، ويتعلق الأمر بوظائف هذه الأساليب في الخطاب فهما وتلقيا وتحليلا. وقبل الحديث عن وظائف هذه الأساليب في تحليل الخطاب، نبدأ أولا بالتعرف على هذه الأساليب وعلى أنواعها ووظائفها.

1) التشبيه:

أهمية التشبيه عند البلاغيين

عُنِي النقاد والبلاغيون العرب بالتشبيه عناية بالغة إذا قيس بالاستعارة وغيرها من الألوان البيانية. ففي التشبيه، حسب الرماني ، يتفاضل الشعراء وتظهر بلاغة البلغاء "وذلك أنه يكسب الكلام بيانا عجيبا. وهو على طبقات في الحسن ... فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسِب بيانا فيهما." وهو أشرف الكلام ومظهر الفطنة والبراعة عند أبي هلال العسكري .

وأما ابن رشيق فيعد التشبيه " أصعب أنواع الشعر، وأبعدها متعاطى، وكل يصف الشيء بمقدار ما في نفسه من ضعف أو قوة، وعجز أو قدرة، وصفة الإنسان ما رأى، تكون لا شك أصوب من صفته ما لم ير، وتشبيهه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر."

وقد استمرت هذه النظرة التفضيلية للتشبيه عند معظم البلاغيين والنقاد المتأخرين.

فالتشبيه عند ابن الأثير " يجمع صفات ثلاثة هي : المبالغة، والبيان، والإيجاز،...إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة، وسبب ذلك أن حمل الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنى يعز صوابه و تعسر الإجادة فيه، وقلما أكثر منه أحد إلا عثر...".

وهكذا يتضح أن تفضيل التشبيه عند هؤلاء البلاغيين والنقاد راجع إلى ما يضفيه على الكلام \ الخطاب من بيان وبلاغة ووضوح وإيجاز . وكذا إلى نقله المجرد والمعنوي إلى المحسوس الظاهر، ولذلك فمذهبه عندهم مستوعر وهو مقتل من مقاتل البلاغة ومظهر الفطنة والبراعة.

فلنتأمل ما قاله عبد القاهر الجرجاني في قوله تعالى: **(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما ياكلُ الناس والانعام حتى إذا أخذتِ الارضُ زخرفها وازَّيَّنتْ وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأنْ لم تغْنَ بالامسِ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يونس 24.**

- نموذج تحليلي عند عبد القاهر الجرجاني:

يقول عبد القاهر الجرجاني: « ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما ياكلُ الناس والانعام حتى إذا أخذتِ الارضُ زخرفها وازَّيَّنتْ وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأنْ لم تغْنَ بالامسِ) . كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشْر جملٍ إذا فصلت . وهي وإنْ كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإنَّ ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة. ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر حتى إنك لو حذفتَ منها جملةً واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه.

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعد جمل تنسّق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا. فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما...»[1] أسرار البلاغة ص 88.

فالمتأمل في الآيتين السابقتين وغيرهما كثير في الخطاب القرآني يجد أن أسلوب التمثيل حقق عدة وظائف:

1) الوظيفة النصية وهي التي ركز على بيانها عبد القاهر الجرجاني في نصه السابق، إذ كشف عن ترابط وتناسق عدة جمل في هذا الخطاب وكأنها جملة واحدة، وأن التمثيل لا يمكن تحديد وجه الشبه فيه اعتمادا على بعض الجمل، بل إن الصورة منتزعة من كل هذه الجمل.

2) الوظيفة البيانية الإفهامية: فبالتمثيل تم توضيح حقيقة الحياة الدنيا وزينتها، وأنها سرعانما تفنى وتزول كفناء النبات المخضر بعدما كان مخضرا يانعا تعجب صورته وتغري.

3) الوظيفة الحجاجية الإقناعية: إقناع المخاطبين بأن هذه الحياة وزينتها لا تدوم لذلك لا ينبغي الاغترار بها، أو الانشغال بتحصيلها وترك ما هو أهم وهو العمل للآخرة.

4) الوظيفة التأثيرية: التأثير على المخاطبين وحملهم على تغيير موقفهم من زينة الحياة الدنيا.

5) تحليل الخطاب عند عبد القاهر الجرجاني ركز على الجانب الأسلوبي المتمثل في أساليب التمثيل والوصل ثم أهمية الربط والتنسيق والترتيب في أداء وظائف هذا التمثيل: " ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعد جمل تنسّق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا. فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما."

وهذا طبعا بفلسفة النظم عنده، فلا تكتمل وظائف التشبيه ولا الاستعارة إلا بالنظم.

وقد صنف عبد القاهر الجرجاني بابا من أهم أبواب الكتاب في الاستدلال على أن المزية لا تكون للفظ أو للأسلوب من حيث إنه أسلوب أو لفظٌ، بل لما يؤديه من مقاصد وأغراض[2]، ولما يأتي عليه من طرق إسناد في تراكيبه ونظمه وترتيب مكوناته. وقد توقف عند نماذج للاستعارة فبين كيف أسهمت عناصر أخرى مرتبطة بالتركيب والوصل والنظم في ما صار لها من المزية والحسن، يقول: "ومن دقيق ذلك وخفيه، أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا)...لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرفَ إلا إليها، ولمْ يروا للمزية موجبا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم. وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام = لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سُلِكَ بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسندُ إليه، ويؤْتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده، مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيدٌ نفساً،.."[3]

فعبد القاهر الجرجاني في تحليل هذا الخطاب القرآني بيَّن أن الاستعارة لم تنفرد بما حققه هذا الكلام من أغراض ومعان، بل ساندها في ذلك التركيب النحوي للآية، الذي تم فيه إسناد الفعل (اشتعل)إلى الفاعل غير الحقيقي (الرأس) وصار فيه الفاعل الحقيقي (الشيبُ) تمييزا. مما اثمر أغراضا ومعاني ما كان للتركيب الأصلي أن يحققها،

يقول: "فإن قلتَ: فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل؟ ولمَ بان من المزية بالوجه الآخر هذه البيْنونة؟

[1] - أسرار البلاغة ص 88، وقد جاء بهذا الكلام في سياق تمييزه بين التشبيه المفرد والتشبيه المركب.
[2] - دلائل الإعجاز من 87 إلى الصفحة 105، "فصل في أن هذه المزايا في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تُؤم".
[3] - دلائل الإعجاز ص 100.

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعمَّ جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لمْ يبق منه إلا ما لا يعتدُّ به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: "اشتعل شيب الرأس، أو الشيبُ في الرأسِ"، بل لا يوجِب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة."[1]

وهكذا يظهر كيف أن عبد القاهر الجرجاني يجعل الأسلوب البياني لا يحقق الأغراض المقصودة بمفرده بل بمعية التركيب النحوي وما يطرأ عليه على مستوى الإسناد من تقديم وتأخير وغير ذلك من أحوال المسند والمسند إليه المعروفة. وتلك المقاصد والأغراض هي مرتبطة بعناصر التخاطب من مخاطِبٍ ومخاطَب ورسالة تخاطبية، وعلى أساسها يحلل البلاغيون الأساليب ومقاصدها وأغراضها.

ثم إن البلاغيين في تعريفهم للأساليب البيانية وفي حديثهم عن أغراضها ووظائفها، يربطون ذلك بأغراض الخطاب ومقاصد المتكلم، ففي بيان وظائف التمثيل ومواقع تأثيره على المخاطَبِ يقول عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أنَّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقِلتْ عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوبَ إليها،....

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبلَ في النفوس وأعظمَ، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدِح، وأوجب شفاعة للمادح.....

وإن كان ذمًّا كان مسُّه أوجع، وميسمُه ألْذعَ، ووقعه أشدَّ، وحدُّه أحدَّ."[2]

فلنتأمل قوله : " فإن كان مدحا كان أبهى وأفخمَ... وإن كان ذمًّا كان مسُّه أوجع"، فالتمثيل كأسلوب بياني ربط بالخطاب وبمقاصده، فهو إما أن يكون خطاب مدح أو خطاب ذم أو خطابا آخر، وفي كل خطاب يحقق أغراضا تخاطبية كما جاء في النص السابق. وهذا الربط للأسلوب البياني بالخطاب نجده راسخا عند النقاد والبلاغيين، وقد عبروا عن ذلك بقولهم على سبيل التقرير والتأكيد في تعريف الشعر وبيان حقيقته: "وهل الشعر إلا تشبيه نادر، ومثَلٌ سائر، واستعارةٌ قريبة؟".

فأن يختصر الشعر في حقيقته وجوهره في أنه تشبيه نادر أو مثل سائر أو استعارة قريبة، أمر دال على نظرة هؤلاء البلاغيين لهذه الأساليب وصلتها الوثيقة بالخطاب وعلاقتها بأطراف التخاطب.

من هنا نفهم لماذا كان النقاد المشتغلون على النصوص يهتمون باستثمارها في تحليل الخطاب، كما يتضح من الخطابات المفسرة والشارحة. فالباحث على سبيل المثال في شروح الشعر العربي القديم سيجد توظيفا واضحا لهذه الأساليب وغيرها من الأساليب اللغوية والبلاغية في تلقي النص الشعري وفي تهذيبه، كشروح المعلقات وشروح الحماسة وغيرها. وكذلك الأمر في تفاسير القرآن الكريم، خاصة تلك التي وظفت اللغة والبلاغة في الشرح كتفسيري أبي حيان الأندلسي (البحر المحيط) والزمخشري (الكشاف). وقد سلك بعض المعاصرين هذا المنحى في التفسير كما هو الحال عند العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير.

[1] - المصدر السابق 101.
[2] - أسرار البلاغة ص 93 .

أساليب علم المعاني وتحليل الخطاب

تأتي أساليب علم المعاني في مقدمة أساليب البلاغة العربية التي تحضر في تحليل الخطاب ويحضر فيها البعد الأسلوبي بشكل واضح وجلي عند أئمة هذه البلاغة. وذلك ما يتضح في دراساتهم لأساليب التقديم والتأخير والوصل والفصل، والإيجاز والاطناب، والحذف والذكر، والقصر وأساليب الخبر والإنشاء والدلالات والأغراض التي قد تفيدها في الخطاب والمقامات الخطابية التي تقضيها وتستدعيها. فالبلاغيون العرب، حين يدرسون هذه الأساليب، يقومون بتحليل النصوص المستشهد بها تحليلا تداوليا وأسلوبيا، فيبرزون وظيفة تلك الأساليب التعبيرية والدلالية والحجاجية، وقد يقارنون ويوازنون بين النصوص وبين الشعراء في الأسلوب نفسه. وفيما يلي توضيح لبعض ملامح تحليل الخطاب في دراسة تلك الأساليب البلاغية.

1 – أسلوب الوصل والفصل:

إن البلاغة العربية القديمة قد أولت أهمية بالغة لمسألة الربط بين الجمل في مبحث الوصل والفصل، وخاصة الربط بالواو، وهو عند البلاغيين مسلك دقيق. فقد بينوا متى يجب الوصل بين الجمل، ومتى يمتنع، ووضحوا علاقة ذلك بالدلالة والسياق وبمقصدية المتكلم وعلاقته بالمخاطب. فهذا عبد القاهر الجرجاني يقول في شأن الجمل التي لا تحتاج إلى وصل: "واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلته معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه.... كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها. وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها."[1]. فعبد القاهر في هذا النص يبين أن ما يجري في المفردات يجري في الجمل، فكما أن المفرد في حال التوكيد والبيان والصفة لا يحتاج إلى وصل، فكذلك الجمل لا تحتاج إلى الوصل والربط في هذه الحالات. وقد استدل على ذلك بنصوص من القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سورة البقرة : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون ختمَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.)،[2] " فقوله تعالى: "لا يؤمنون" تأكيد لقوله: (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم)، وقوله : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم)، تأكيد ثان أبلغ من الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كان في غاية الجهل، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة."[3] وقد قام عبد القاهر الجرجاني بتحليل عدة آيات بهذه الطريقة الأسلوبية.[4]

وهذا المنحى الخطابي في دراسة أساليب علم المعاني نجده واضحا في كتب البلاغة العربية في مباحث الإيجاز والاطناب وفي مباحث الحذف والتعريف والتنكير والقصر.

[1] - دلائل الإعجاز 227 (بتصرف)
[2] - البقرة 6-7
[3] - المصدر السابق 228
[4] - ينظر دلائل الإعجاز 228 والصفحات الموالية.

2- التقديم والتأخير:

لعل أبرز المباحث البلاغية التي اتخذت عند بعض البلاغيين العرب القدامى بعدا أسلوبيا مبحث التقديم والتأخير، وقد أجاد في معالجته إمام البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني، الذي توقف عند التقديم مع همزة الاستفهام، ومتى يحصل، وما هي أغراضه المقامية، وعلاقة ذلك بالمقام التخاطبي وبمقاصد المتكلم. كما بين متى يتم تقديم الفعل، ومتى يقدم الفاعل، ومتى يقدم المفعول، مستشهدا بنصوص وشواهد، ومحللا لتلك النصوص تحليلا يجعلك تحس وكأنك أمام لساني تداولي يحلل الخطاب في علاقته بأطرافه وبسياقه التخاطبي. فقد ميز بين نوعين من التقديم:

- أولهما: تقديم على نية التأخير، ومثاله قول المتكلم:

- منطلق زيدٌ

- ضربَ عمراً زيدٌ

" ... معلوم أن "منطلق" و"عمرا" لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبرَ مبتدإ ومرفوعا بذلك، وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله، كما يكون إذا أخرت."[1]

- ثانيهما: "تقديم لا على نية التأخير، " ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه..."[2]، ومثل له بقول المتكلم:

  - زيدٌ المنطلقُ
  - المنطلقُ زيدٌ

ثم حلل تلك النماذج وبيَّنَ المقتضيات المقامية المناسبة لكل نموذج. يقول: "فأنت في هذا لم تقدم "المنطلق" على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبرَ مبتدإٍ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر "زيد" على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرا."[3]

وبعد ذلك توقف عبد القاهر الجرجاني[4] عند قول سيبويه إن التقديم قد تم للعناية والاهتمام، ووضح بعض الأمثلة المتداولة عند النحاة والفرق التداولي بينها، ثم بين أنه لا يكفي تفسير ذلك بالعناية والاهتمام، بل ينبغي البحث في مقتضياته المقامية وأسراره البلاغية، كما انتقد مذهب النحاة في التعامل مع الأساليب البلاغية، وتقصيرهم في البحث عن أسرارها البلاغية، مما فوت عليهم – في نظره – معرفة البلاغة وأسرار النظم. يقول: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقول: "إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم"، من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ = ولتخيلهم ذلك، قد صغُرَ أمر "التقديم والتأخير" في نفوسهم، وهوَّنوا الخطْبَ فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف. ولمْ تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه.

وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في "الحذف والتكرار"، " والإظهار والإضمار"، و"الفصل والوصل"، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه = إلا نظرك فيما غيره أهمُّ لك، بل فيما إن لمْ تعلمْه لم يضرك." [5]

---

[1] - دلائل الإعجاز 106.
[2] - المصدر السابق 106 (بتصرف).
[3] - المصدر السابق 107.
[4] - دلائل الإعجاز 108 – 109.
[5] - دلائل الإعجاز ص 108 – 109. وقد دخل في حجاج هؤلاء البلاغيين، ودحض مذهبهم في التعامل مع هذا النوع من الأساليب. كما بين أنه من الخطإ أن يقسم" الأمر في تقديم الشيء وتأخيره " إلى مفيد وغير مفيد، وأن يعلل تارة "بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذاك سجعه". ينظر المصدر السابق 110.

ومن أهم مباحث التقديم والتأخير عند عبد القاهر الجرجاني مبحث "التقديم مع همزة الاستفهام"[1]، وقد أبدع في بيان الفرق التداولي بين كل حالة من الحالات التي مثل لها. فبين المقتضيات المقامية لهذه النماذج، ومتى ينبغي البدء بالفعل، ومتى نقدمُ الفاعل، وما هو المقام الذي يقتضي تقديم المفعول. كما بين عبد القاهر أن الإنكار بالهمزة قد يكون إما للفعل (ماض أو مضارع) أو للفاعل أو للمفعول، وقد فسر ذلك أسلوبيا وتداوليا.[2] وبعدما أبدع الجرجاني وأجاد في تفسير النماذج التي تم فيها التقديم مع همزة الاستفهام، توقف عند التقديم في أسلوب النفي، فبين أغراضه التداولية أيضا[3]، وذلك ما يمكن توضيحه أهمه بالجدول الموالي:

أسلوب المتكلم	تفسير الجرجاني للمقام التداولي
1- أفعلتَ؟	1- البدء بالفعل: يقول: " تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه ،لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه، مجوزٌ أن يكون قد كان، وأن يكون لمْ يكن"[4].
2- أأنتَ فعلتَ؟	2- البدء بالاسم: بين الجرجاني أن المتكلم إنما يبدأ بالاسم عندما يكون شاكا في الفاعل، "تبدأ بالاسم (أأنت قلت الشعر)،لأنك لم تشك في الفعل أنه كان ... وإنما تشك في الفاعل من هو؟" .
3- أشعرًا قلتَ؟	3 - في حين يبدأ المتكلم بالمفعول عندما يكون مهتما بمن وقع عليه الفعل، يقول: "لأنك مهتم
- أكتاباً قرأتَ؟	بمن وقع عليه فعل الفاعل، أنت لا تشك في الفعل ولا في الفاعل، بل في المفعول".
- أعالمًا قابلت؟	---
4- ما ضربتُ زيدا.	4 – المتكلم ينفي هنا فعل الضرب.
5- ما زيداً ضربتُ.	5 – المتكلم لا ينفي الضرب بل ينفي أن يكون زيدا هو المضروب.

وفي المبحث الأخير توقف عبد القاهر الجرجاني عند النكرة وتقديمها على الفعل في الاستفهام والخبر، فقام بدراستها دراسة أسلوبية تداولية كما يتضح من الجدول الآتي:

المثال	الطبقة المقامية المناسبة له حسب الجرجاني
1) أجاءك رجل؟	- السؤال هنا عن فعل المجيء هل حدث، ولا يجوز هنا تقديم الاسم.
2) أرجل جاءك؟	- السؤال عن جنس من جاء أهو رجل أم امرأة.
3) أرجل طويل جاءك؟	- السؤال عن وصف الرجل أطويل أم قصير.
4) رجلٌ جاءني.	- القصد جنس من جاء .
5) جاءني رجلٌ.	- القصد فعل المجيء.
6) رجل قصير جاءني.	- القصد صفة الرجل.
7) ما أتاني إلا رجل.	- لا يقال إلا عندما يتوهم السامع أن الذي جاء امرأة.
8) ما جاءني إلا زيد.	- يقال عندما تريد قصر المجيء على زيد دون غيره لما يتوهم السامع أن غير زيد أتاك.

1 - المصدر السابق 111.

2 – المصدر السابق 114 – 116

3 – المصدر السابق 124.

4 – المصدر السابق 111

إن الباحث في هذا المبحث وفي غيره من مباحث علم المعاني، ليجد نفسه أمام تحليل أسلوبي تداولي بلاغي متفرد.

3) السياق أوالمقام التخاطبي:

من المعلوم أن البلاغيين قد اهتموا في دراساتهم بالسياق والمقام، واشترطوا في البلاغة موافقة مقتضى الحال، فلا يكون المتكلم بليغا عندهم إلا إذا كان كلامه مطابقا لما يقتضيه المقام، لذلك اشتهرت عندهم عبارة "لكل مقام مقال"، وقد جاء ذلك واضحا بينا في مباحث الحذف والتقديم والتأخير والوصل والفصل والإيجاز والاطناف والتعريف والتنكير والخبر والإنشاء، ويكفي العودة إلى عبد القاهر الجرجاني في هذه المباحث ليتضح هذا الأمر.

وقد استفاد أبو يعقوب السكاكي مما أنجزه البلاغيون السابقون في هذا المجال، فأعاد صياغته صياغة منظمة، وقدمه تقديما واضحا،فأجاد في ربط الأساليب بالمقام والسياق التخاطبي، إذ خصه بمبحث مهم، تحدث فيه عما يقتضيه المقام من مقال، يقول: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام على الاستخبار أو الإنكار، وكذا مقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار..."[1].

وقد استحضر السكاكي السياق والمقام في عدة مباحث أبرزها مبحث "الخبر والإنشاء"، وتوصل إلى نتائج مهمة في بيان أغراضهما الأصلية والمقامية. ولذلك نجده مرجعا لبعض اللسانيين في الكثير من دراساتهم التداولية لهذه الأساليب[2]. إذ بين أن الخبر قد يفيد الطلب بمعونة قرائن الأحوال، وأن الإنشاء قد يفيد الخبر، كدلالة الاستفهام على التقرير أو النفي، يقول: "واعلم أن الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر، لا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكت قلما يفطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا..."[3].

ولما كانت الأساليب الإنشائية أكثر انزياحا وعدولا عن معانيها الأصلية، فقد خصها ببحث مفصل تميز به عن غيره من البلاغيين؛ إذ بين بتفصيل ما قد تفيده الأساليب الإنشائية الطلبية من معان مقامية،فقسمها إلى نوعين:

- نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول وهو التمني .
- ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول ويشمل باقي الأساليب الإنشائية الطلبية .

ثم قال: "ومتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام كما إذا قلت لمن همك همه : ليتك تحدثني، امتنع إجراء التمني، والحال ما ذكره، على أصله فتطلب الحديث من صاحبك غير مطموع في حصوله وولد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال، أو كما إذا قلت : هل لي من شفيع ، في مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع، امتنع إجراء الاستفهام على أصله، وولد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني، وكذا إذا قلت : لو يأتيني زيد فيحدثَني بالنصب، طالبا لحصول الوقوع فيما يفيد "لو" من تقدير غير الواقع واقعا، ولَّد التمني، وسبب توليد "لعل" معنى التمني في قولهم: "لعلي سأحجُّ فأزورَك بالنصب هو بُعْد المرجو من الحصول، أو كما إذا قلتَ لمن تراه لا ينزلُ : "ألا تنزل فتصيبَ خيرا؟" ، امتنع أن يكون المطلوب بالاستفهام التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلا، ويوجه بمعونة قرينة الحال إلى نحو : ألا تحب النزول مع محبتنا إياه؟، وولد معنى العرض، كما إذا قلت لمن يؤذي أباه : أتفعل هذا ؟ امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى ، لعلمك بحاله، وتوجه إلى ما لا تعلم، مما يلابسه، من نحو أتستحسن؟. وولَّد الإنكار والزجر، أو كما إذا قلت

[1] - مفتاح العلوم 256.
[2] - ينظر مثلا د. أحمد المتوكل 86 و 89
[3] - مفتاح العلوم ص : 323

لمن يهجو أباه، مع حكمك بأن هجو الأب ليس شيئا غير هجو النفس: هلْ تهجو إلا نفسك؟ أو غير نفسك؟ امتنع منك إجراء الاستفهام على ظاهره، لاستدعائه أن يكون الهجو احتمل عندك توجها إلى غيره، وتولد منه بمعونة القرينة، الإنكار والتوبيخ"[1].

وقد استطرد السكاكي في الحديث عن هذه البنيات الاستفهامية التي خرجت عن أصل الوضع تبعا للمعطيات المقامية ومن النماذج التي ذكرها:

المثال	الغرض
✓ ألا تنزل فتصيبَ خيرا؟	- العرض
✓ أتفعل هذا ؟ (لمن رأيته يؤذي أباه)	- الإنكار والزجر.
✓ هل لي من شفيع	- التمني
✓ لو يأتيني زيد فيحدثَني	- التمني
✓ لعلي سأحجُّ فأزورَك.	- التمني.
✓ ألَم أؤدبْ فلانا؟	- الوعد والزجر .
✓ أما ذهبت بعد؟	- الاستبطاء (أما تيسر لك الذهاب بعد؟).
✓ ألا أعرفك؟	- الإنكار والتعجب : (أتظنني لا أعرفك؟)
✓ افعل هذا الأمر؟ وأنت تعرف عجزه عن فعله.	- التعجيز.
✓ اشتُمْ مولاك ؟ بعد تأديب العبد على ذلك.	- التهديد.
✓ لا تمتثل أمري؟	- التهديد.

4- أسلوب الالتفات:

يعد أسلوب الالتفات من الأساليب التي نالت اهتمام النقاد والبلاغيين العرب القدامى واكتست في تحليلاتهم وتطبيقاتهم بعدا أسلوبيا. فقد أظهروا في معالجة هذا الأسلوب إبداعا وتألقا. والالتفات عندهم نوع من العدول أو الانزياح، من ضمير إلى آخر، أومن معنى إلى آخر، أو من زمن إلى آخر. وقد بدأ الاهتمام بهذا الأسلوب مبكرا مع الشاعر الناقد والبلاغي عبد الله ابن المعتز الذي عرفه قائلا: "الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى آخر."[2] والالتفات عنده من محاسن الكلام والشعر.

ثم تطورت مقاربة هذا الأسلوب مع البلاغيين الذين جاؤوا بعده، فقدامة بن جعفر ركز في تعريفه على النوع الثاني الذي يكون فيه العدول من معنى إلى آخر: "الالتفات أن يكون الشاعر آخذا في معنى فيعترضه إما شك فيه أو يظن بأن رادا يرد عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه، بمعنى يلتفت إليه بعد فراغه، فإما أن يذكر سببه أو يجلي الشك فيه."[3]

ومن أمثلة الالتفات عنده قول الرماح ابن ميادة:

فلا صرمه يبدو وفي اليأس راحة *** ولا وصله يبدو لنا فنكارمه

قال تعليقا على هذا البيت:" فكأنه وهو يقول:" وفي اليأس راحة" التفت إلى المعنى لتقدير أن معارضا يقول له: ما تصنع بصرمه؟ فقال: لأن في اليأس راحة."[4]

---

[1] - مفتاح العلوم ص : 416- 417.
[2] - ينظر كتاب البديع ص 58 .
[3] - قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص : 150.
[4] - قدامة 151. وقد أعاد أبو هلال العسكري تعريف قدامة وأمثلته، ينظر كتابه :الصناعتين 392ص .

إلا أن أسلوب الالتفات سيتخذُ بعدا أسلوبيا واضحا عند ابن الأثير الذي خصه ببحث مفصل، بين فيه أقسامه وأغراضه، واستشهد له بنصوص كثيرة من القرآن الكريم والشعر العربي القديم، قام بتحليلها ودراستها أسلوبيا، مبرزا الوظائف الدلالية والمقامية والجمالية والحجاجية لأسلوب الالتفات، وقد عرَّض بمن فاته ذلك واكتفى بتفسير بلاغة الالتفات "بالتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع"[1].

تطبيق:

قال الشاعر أبو فراس الحمداني ، وهو في الأسر عند الروم يخاطب حمامة:

أقُول وقَد نَاحت بقُربي حمامَةٌ *** أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟

معاذ الهوى! ما ذُقتِ طارقة النَّوى*** ولا خَطَرَت مِنك الهُمُوم ببالِ

أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ *** على غُصُنٍ نائي المسافةِ عالِ؟

أيا جارتا، ما أنصفَ الدهرُ بيننا*** تعاليْ أُقاسمكِ الهمومَ، تعالي!

تعالي تري رُوحاً لديَّ ضعيفةً*** تردَّدُ في جسمٍ يُعذّب بالي

أيضْحك مأسورٌ، وتبكي طليقةٌ *** ويسكتُ محزونٌ، ويندبُ سال؟

لقد كنتُ أولى منك بالدمعِ مُقلةً*** ولكنّ دمْعي في الحوادثِ غَال

حللْ هذا القصيدة مبرزا ما يلي :

سياق الخطاب – عناصر الخطاب – مقصدية الخطاب

أساليب التخاطب البلاغية (أساليب علم المعاني – أساليب علم البيان – أساليب علم البديع)، مع إبراز وظائفها في خطاب الشاعر.

[1] - ابن الأثير، المثل السائر 2\3- 4

أساليب علم البديع وتحليل الخطاب

- أهمية أساليب البديع في تحليل الخطاب: كشأن أساليب البلاغة العربية الأخرى، فإن أساليب البديع تؤدي وظائف عدة في الخطاب منها:
  - الوظيفة النصية؛ إذ تساهم في تماسك النص واتساقه؛
  - الوظيفة البيانية؛ إذ تسهم في بيان مقصدية المرسل ودلالة النص والخطاب؛
  - الوظيفة الحجاجية الإقناعية: فهذه الأساليب تؤدي وظائف إقناعية عن طريق التقايل والتجانس والالتفات وغير ذلك؛
  - الوظيفة التأثيرية : فضلا عما سبق فهذه الأساليب تؤثر في المتلقي لما توفره للأسلوب من جمالية وتناسق.
  - ولذلك نصادف هده الأساليب في مختلف الخطابات، كالخطاب القرآني والخطاب الشعري وفن الخطابة وفن المناظرة والرسالة وغيرها.

ولذلك فقد استدل ابن المعتز في كتابه البديع على حضور البديع كلام العرب وفي القرآن الكريم والحديث النبوي في الشعر القديم وحاج من يزعم بأنه فن مستحدث.

يقول: «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليُعلَم أن بشارا و مسلما وأبا نواس ومن تقبَّلهم وسلك سبيلهم لمْ يسْبِقوا إلى هذا الفن ولكنه كثُر في كلامهم فعرف في زمانهم حتى سمِّي بهذا..» ص 9

لذلك فابن المعتز استدل في كتابه هذا على وجود البديع قبل المحدثين من القرآن الكريم ومن الحديث النبوي ومن الشعر العربي القديم ومن كلام العرب.

لكن ابن المعتز استعمل البديع بمفهومه العام، فجعل منه الاستعارة وبدأ بها مصنفه واعتبرها الباب الأول في البديع، كما توقف في آخر كتابه عند التشبيه والتعريض والكناية.

مما يدل على أن أساليب البديع عند المتقدمين كان يقصد بها أساليب البلاغة.

البلاغة الجديدة وتحليل الخطاب

اتجاهات البلاغة الجديدة في البلاغة الغربية:

عرفت البلاغة في الثقافة الغربية في العصر الحديث تطورا ملموسا وحظيت باهتمام كبير من قبل الدارسين، بعد قرون من التهميش والاختزال. وقد تعددت مفاهيم البلاغة الجديدة ومجالاتها، فصرنا نصادف عناوين وعبارات تربط البلاغة بحقول معرفية أخرى أو تصف البلاغة وصفا يجعلها مغايرة لما عُرف عنها من اختزال وتهميش. وهكذا شاعت في الدراسات البلاغية الجديدة هذه العناوين: البلاغة العامة، البلاغة والشعرية، البلاغة والحجاج، البلاغة والأسلوبية، البلاغة والتداولية، البلاغة والفلسفة، البلاغة والتأويل، البلاغة والاستعارة المفهومية...

سنحاول في هذه المحاضرة والتي تليها توضيح بعض مظاهر وتجليات تحليل الخطاب في البلاغة الجديدة، وسنركز بالأساس على البلاغة الجديدة والحجاج، لكن قبل ذلك سنعرف ببعض الاتجاهات والمحاولات الأخرى التي جاءت في إطار البلاغة الجديدة.

يقول البلاغي المغربي محمد الوالي: " يتأرجح مفهوم "بلاغة" في الثقافة الغربية بين معنيين مختلفين هما، بلاغة الحجاج وبلاغة الشعر، يدل الأول على الخطاب الذي يستهدف إقناع المستمعين، أو تغيير الأحوال والمقامات، ويدل الثاني على الخطاب الذي يتنصل من مهمة الإقناع لكي يصبح هو في حد ذاته هدفا وغاية، أي يصبح هدفا جماليا". الاستعارة في محطات يونانية عربية وغربية ص8.

1) البلاغة والشعرية (جون كوهن):

اهتم هذا الاتجاه بما يجعل الخطاب الأدبي ذا وظيفة جمالية تأثيرية إلى جانب وظيفة الإبلاغ، وقد عمق هذا التيار مفهوم الانزياح، فأكملُ صياغة لسانية لنظرية الانزياح هي تلك التي صاغها **جون كوهن** في كتابه "**بنية اللغة الشعرية**" . فقد سعى جون كوهن إلى تأسيس علم الشعرية محددا هدفه من تحليل النصوص الشعرية في البحث عن البنى المشتركة بين الصور على اختلافها بين القافية والاستعارة، والتقديم والتأخير، فكل من هذه الملامح تعمل حسبه على " خرق قانون اللغة لكنها جميعها تحقق الأثر الجمالي نفسه". وخرق قانون اللغة هو ما يسمى بالانزياح.

ويلح كوهن على الوظيفة التوصيلية للخطاب الشعري، يقول: "إن الشعر، شأنه شأن النثر خطاب يوجهه المؤلف إلى القارئ، فلا يمكن الحديث عن الخطاب إذا لم يكن هناك تواصل، ولكي يكون الشعر شعرا، ينبغي أن يكون مفهوما من طرف ذلك الذي يُوَجه إليه". بنية اللغة الشعرية ص173

إن الشعرية، حسب كوهن، عملة ذات وجهين متعاكسين ومتزامنين، هما **الانزياح ونفيه**، تكسير البنية وإعادة البناء، إن ما يمنح الخطاب الأدبي خصوصية الشعرية هي عملية التأرجح بين الذهاب والإياب من الدلالة إلى فقدان الدلالة، ومن فقدان الدلالة إلى الدلالة. موضوع الشعرية إذن هو الانزياح الذي يتحقق بلغة تتجاوز المعطى المتواضع عليه.

2) البلاغة والاستعارة المعرفية: (مارك جونسون، وجورج لايكوف):

لقد أثرى كتاب " الاستعارات الذي نحيا بها" لمارك جونسون وجورج لايكوف الأبحاث في باب الاستعارة والمجاز في الثقافتين العربية والغربية لفترة طويلة. إذ قدم تفسيرا جديدا للاستعارة يختلف عن التفسيرات السائدة، التي كانت تركز على الطبيعة اللغوية المحضة للاستعارة. "فالاستعارة عند جونسون ولايكوف ظاهرة ذهنية يتم فيها إسقاط مجال حياتي معين على مجال آخر، ولا علاقة للاستعارة بالعبقرية بل إنها لازم من لوازم معيشة أي إنسان" عبد الله الحواصي دراسات في الاستعارة المفهومية ص7

"فالاستعارة "حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية. إنها ليس مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا. إن النسق التصوري العادي الذي يسيّرُ تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية بالأساس... وإذا كان صحيحا أن نسقنا التصوري في جزء كبير منه ذو طبيعة استعارية، فإن كيفية تفكيرنا وتعاملنا وسلوكياتنا في كل يوم ترتبط بشكل وثيق بالاستعارة". الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف ومارك جونسون ص21.

وهذا معناه أن دور المشابهة لا يقتصر على الدور الجمالي الذي يجعلها خاصة بالأدباء والشعراء، بل إنها مهمة أيضا لإدراك الإنسان العادي، مما يعني وجودها في فكره ولغته كأداة للفهم والإفهام. ومن ثم "يمكن تتبع مظاهر الاستعارة في الأحاديث اليومية، كما يمكن رؤيتها مثلا في الشعر والخطاب السياسي والخطاب الديني وغيرها، أي أن الاستعارة شأن ذهني خالص يقتصر دور اللغة فيه على عملية العكس كما تعكس المرآة الضوء." عبد الله الحواصي دراسات في الاستعارة المفهومية ص8.

فالإنسان حسب هذا التوجه البلاغي يفهم الأمور المادية والمعنوية في حياته فهما تجريبيا ماديا. وإذا كان فهمُ الماديات فهما مباشرا(غير استعاري)، فإن فهمَ المعنويات يتم من خلال الاستعانة بتجاربنا المادية التجريبية، أي أننا نفهمها استعاريا. فكثير من الموضوعات المجردة يفهمها الإنسان فهما استعاريا من خلال حملها على التجارب المادية المُخزنة في عقله.

ويفرق باحثو اللسانيات الإدراكية بين **المفهوم الاستعاري والتعبير الاستعاري**، ذلك أن المفهوم الاستعاري قار ثابت في العقل، في حين أن التعبير الاستعاري يظهر في اللسان والكلام، **وكل تعبير استعاري منبثِق من مفهوم استعاري**. وللثقافة تأثير كبير فيما يستقبله العقل الإنساني من مفاهيم استعارية، إذ يختلف الناس في ثقافاتهم وعاداتهم، وبالتالي تختلف المفاهيم الاستعارية في عقول الناس. ويؤثر هذا الاختلاف على الاستجابات التي تصنعها هذه الاستعارات في المتلقين بحسب ثقافتهم وعاداتهم. وكمثال على ذلك " يشير أحد الباحثين(عبد الإله سليم: بنيات المشابهة في اللغة العربية ص68-69) إلى الفرق بين الاستعارات الشائعة عن (الوقت) بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة، فالمجتمعات المتقدمة الصناعية تبني تصورا للوقت في ضوء المال أو الذهب، لذلك تشيع في حديث أفرادها عبارات من مثل:

- أنت تضيع وقتي.
- لا أملك وقتا أعطيك إياه.
- كيف تصرف وقتك هذه الأيام.
- يضيع كثير من وقتي عندما أمرض.

فهذه عبارات تصدر عن تصور استعاري يقدر الوقت ويعده أغلى شيء. أما في مجتمع لا يقدر الوقت ولا يرى له قيمة فتشيع عبارات من مثل:

- خذْ كل وقتي، فأنا معك حتى الصباح.
- لا تأبهْ بتبذيرنا الوقت في هذا الحوار.

وهكذا يتضح أن الاستعارة لها تأثير في مواقف الإنسان وقيمه وما يصدر عنه من تصرفات وفي سلوكه اليومي. وقد اهتم لايكوف بأثر المفهوم الاستعاري في صناعة الموقف والسلوك الإنساني. وفي هذا السياق تحدث عن الخطاب السياسي الأمريكي بين المحافظين والليبراليين، ورأى أن

تصورا استعاريا يحكم رؤاهم السياسية، وقد أفرز هذا التصور كل المواقف والرؤى السياسية التي نادى بها أو ينادي بها كل حزب خلال حمالاته الانتخابية.

3) البلاغة الجديدة والحجاج

حظيت البلاغة القديمة (Rhetorique) بعناية كبيرة عند الدارسين المحدثين، فبعدما كانت هذه البلاغة مستهجنة في مرحلة من المراحل عند الغربيين، عاد الاهتمام إليها من طرف الباحثين في مجالات مختلفة، كالسيميائيات وتحليل الخطاب والأسلوبية والتداولية وغيرها. فقد قامت المدرسة البلجيكية بجهود كبيرة لتخليص الدرس البلاغي مما لحقه من تحريف واختزال، كما عملت على لفت انتباه الباحثين إلى أهمية اللغة في بناء الفرد والمجتمع والحياة ككل.

ومن أبرز الباحثين الذين كان لهم دور واضح في تجديد البلاغة اليونانية القديمة والنهوض بها: شاييم بيرلمان CH.Perleman، الذي توج أبحاثه في الفلسفة والقيم بكتابه: " مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة"، الصادر سنة 1958م بالاشتراك مع زميلته أولبريخت تيتيكا O.Tyteca، وهو أكثر أعماله" شهرة واكتمالا وإلماما بقضايا الحجاج. يقول أحمد يوسف: " أعطى شاييم بيرلمان CH.PerlemanK دفعا كبيرا للبلاغة، فأعاد لها الروح من جديد، وذلك بالعودة إلى بلاغة أرسطو، ثم صارت تعرف على يديه بـ"البلاغة الجديدة":(la nouvelle rhetorique) التي انبثقت زمنيا قبل البنيوية والتداوليات"[1]. فـ"شاييم بيرلمان" إذن هو رائد البلاغة الجديدة، وقد عالجها من بعدها السميائي كحجاج(Argumentation)، وكآلية في تحليل الخطاب سيميائيا. لقد حاول المؤلفان، من خلال مصنفهما، بعث بلاغة الإقناع بعد الإهمال الذي لحقها لقرون طويلة، وبعد انحصار البلاغة في المجازات والمحسنات والصور...بإخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل. كما عمِلا على تخليص الحجاج من تهمتين ألصقتا به: "تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور....وتهمة صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب... مدفوعين بوعيهما بمحدودية المنطق الصوري والعقلانية الديكارتية في تغطية كل مجالات الحياة. ففرضت البلاغة وجودها بعدما كانت منسية ومهملة ومصنفة في خانة العلوم التراثية. ولذلك فقد تساءلت "باربارا جونسن": "عن ذلك السلام الذي حل بالبلاغة، بعد أن شنت عليها الرومانتيكية حربا لا هوادة فيها انتقاما من صنمية التقليدية حتى استردت حقها في العودة إلى حقل التفكير النظري"[2]

وهكذا صارت البلاغة تقتحم مجالات تخصصية عدة وتتداخل مع سائر فروع العلوم الانسانية كالتحليل النفسي والأنتروبولوجيا والفلسفة واللسانيات . وأضحت تدلي بمعارفها وقوانينها فيها. مما دفع إلى تأسيس مفهوم " البلاغة العامة"، كما طرحته جماعة " ليبج"، متجاوزة نظرية الصياغة ودراسة الأسلوب. وأصبحت علما لا يستغنى عنه في تحليل الخطاب، لأنها تستطيع الإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي تتعلق بقوانين الخطاب. لقد صارت البلاغة، كما يقول أحمد يوسف، تتطلع إلى أن تكون لغة واصفة لخطابات اجتماعية متعددة مستعينة في ذلك بإنجازات الثورة اللسانية المعاصرة.[3]

وهذا ما أدى إلى ظهور حقل تخصصي، يجري الاشتغال عليه من قبل عدد من الدارسين المحدثين، يصطلح عليه: **"البلاغة وتحليل الخطاب"**، رغبة منهم في إيجاد أفضل مقاربة لخطابات متعددة.

والبلاغة الجديدة صارت تمتد إلى الإحاطة بأشكال التعبير الأيقوني بدءا من الكتابة إلى عالم الصورة والوقوف على تحولاتها الاجتماعية والجمالية ضمن حضارة الصورة التي فرضت أدبيات جديدة في الحوار.[4] فاقتحمت البلاغة عالم السيمياء وأضحت تشاركه في الكثير من المباحث والأفكار عن طريق التصوير الأيقوني.

إن البلاغة الجديدة تطمح إلى أن تصبح نظرية للخطاب، إذ أصبحت تقدم نفسها على أنها العلم المستقبلي لتحليل الخطاب ليشمل الحجاجية، ذات النزوع المنطقي واللساني، والأسلوبيات، والسميائيات النصية....

---

[1] - السميائيات والبلاغة الجديدة، أحمد يوسف، مجلة علامات ع 28، 2007، المغرب ص : 110

[2] - المرجع السابق 110.

[3] - المرجع السابق111

[4] - نفسه 112

ويرجع الباحث هنريش بليث النهضة البلاغية في الستينات من القرن الماضي إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية ونظريات التواصل والسيميائيات والنقد الأيديولوجي، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص، وتقويمها. ثم يضيف قائلا: " ونتيجة لهذه الأهمية يجب أن نسجل، أولا، أن البلاغة قد صارت علما، وأننا نهدف من جهة ثانية إلى إقامة نظرية بلاغية، وأن البلاغة... ليست محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم، بل إنها لتنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع. إن رواد هذه البلاغة الجديدة في فرنسا هم رولان بارت وجيرار جينيت و ب. كَونتر و كبدي فاركا ومجموعة Mu بِلْييج وبيرلمان وتودوروف. لقد استطاع هؤلاء الباحثون وباحثون آخرون كثيرون في بلاد أخرى أن يجعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا." [1] **ولم يعد - حسب هنريش - الهدف الأول للبلاغة العلمية هو إنتاج النصوص بل تحليلها.** ويقول في بيان مسوغات البلاغة الجديدة: "وتستند عملية إعادة بناء البلاغة، باعتبارها منهجا لتحليل النصوص، على مبررين:

- **المبرر الأول ذو طبيعة تاريخية**. " وبين فيه أن نصوصا مختلفة (خطابات، ومواعظ، ورسائل، وأشعار ...ألخ) تُنتج حسب قواعدها. " فإذا ما استعملنا ، بعد ذلك، المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإننا سنساهم في كشف تركيبها الشكلي القصدي."
- "**والمبرر الثاني ذو طبيعة جوهرية ومنهاجية**، فقد أظهر النسق البلاغي، عبر قرون، قابلية للاستمرار، بل ومرونة تسمح بالتمادي في تطبيقه على نصوص جديدة. ونتيجة لذلك ظهرت أنساق بلاغية فرعية، مثل بلاغة أدب الترسل والمواعظ والشعرية البلاغية. وقد أوحت هذه الحالة بإمكانية تطبيق البلاغة على جميع النصوص الممكنة."[2]

إن تصورا للبلاغة من هذا القبيل، في نظر هنريش، يتضمن أمرين:

- أولهما ضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحا، لا لدراسة النصوص الأدبية وحدها، بل لدراسة غيرها من النصوص على اختلافها،
- وثانيهما الفكرة المتضمنة في أن كل نص هو بشكل ما "بلاغة"، أي أنه يمتلك وظيفة تأثيرية. وبهذا الاعتبار فالبلاغة تمثل منهجا للفهم النصي مرجعه التأثير.

لذلك "ففي النموذج البلاغي للتواصل يحتل متلقي الخطاب المقام الأول بدون منازع."[3]

[1] - البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور محمد العمري ، ص 15-16

[2] - المرجع السابق 16.

[3] - المرجع السابق 17.

الحجاج في البلاغة الجديدة

الحجاج خطاب غرضه التأثير في المواقف والأفكار والقناعات. وبالتالي فهو نوع من أنواع التواصل والتفاعل، لكنه تواصل لا يقف عند حدود الإخبار بالمعلومة، أو التعبير عن الموقف، أو الشعور أو العاطفة، بل يراهن على الإقناع والتأثير في المستقبِل\ المرَسَل إليه.

ويعد الحجاج في الدراسات الحديثة جزءا من تحليل الخطاب، فقد ورد في معجم تحليل الخطاب أنه يمكن أن "نميز بين الحجاج الذي يحدد بأنه التعبير عن وجهة نظر في ملفوظات عديدة أو ملفوظ واحد، بل حتى في كلمة واحدة، بل حتى في كلمة واحدة، وبين الحجاج باعتباره طريقة خصوصية في تنظيم مجموعة ملفوظات وليس هذان التحديدان متنافرين."[1].

فالحجاج تواصل لأنه عبارة عن تعبير عن وجهة نظر معينة لمُرسِل إلى مرسَل إليه في مقام تواصلي معين، يتم بالألفاظ، وليس ضروريا أن يكون الحِجاج خطابا طويلا، فقد يتم الحجاج بلفظة واحدة، وقد يتم بعدة ملفوظات، كما يعتبر الحجاج أسلوبا وخاصية من خواص اللغة، يتم بتنظيم محدد ذي مميزات يتصف بها عبر الخطاب الذي يتضمن مجموعة من الملفوظات والتراكيب والأساليب والصور تنهض بذلك.

إن الحجاج وسيلة بيد المُرسِل \المُخاطِب\ المُحاجج تهدف إلى تغيير بعض قناعات المرسَل إليه\المخاطَب، وكل وسيلة تضطلع بهذا الدور فهي حجاج، "كما تنتج عن هذا الحجاج ملفوظات تكون متناسقة ولها علائق وخيوط ناظمة..." لخداري سعد ص 206

وللحجاج دور في زيادة تناسق الخطاب وانتظامه، كما يعتمد المخاطِب \المحاجِجُ ترتيبا مُمَنهجا لحججه حتى تؤدي دورا كاملا، وحتى يؤثر المخاطب في السامعين ويكسب تأييدا حول كلامه وقناعاته.

وقد تزايد الاهتمام بالحجاج من طرف اللسانيين والبلاغيين الجدد، فإذا كان اللسانيون يركزون على وسائل وآليات الحجاج اللغوية النصية، فإن البلاغيين يهتمون بجوانب أخرى منطقية وفلسفية.

وقد توقفت في المحاضرة السابقة عند الحجاج في البلاغة القديمة، وتحديدا البلاغة الأرسطية، لذلك سأركز في هذه المحاضرة على الحجاج عند البلاغيين الجدد، وتحديدا بيرلمان وتيتيكا.

لقد ارتبطت الدراسات الحجاجية الجديدة بحقل الخطاب، فالبلاغة الجديدة تتمحور أساسا حول تحليل تقنيات الحجاج، ولذلك فهي تحتفي كثيرا بالحجاج وتعطيه مساحة هامة في الدراسة، خاصة مع دراسات شاييم بيرلمان ورولان بارت الحجاجية التي انطلقت من أعمال البلاغيين اليونان، والتي كانت تدور بكثرة حول الحجاج كخطاب مورس في الحاضرة الإثنية على مستوى الخطاب ذاته – كأنساق مُشكِّلة له ذات وظيفة حجاجية - وعلى مستوى أثر هذا الحجاج على المتلقي. لأن الحجاج ذو خاصية تداولية. ولذلك فالحجاج ، عند كثير من الدارسين في السنوات الثمانين من القرن العشرين، هو مبحث ينتمي إلى حقل التداولية،[2]

أطر الحجاج في البلاغة الجديدة:

لقد حدد بيرلمان وتيتيكا موضوع نظرية الحجاج في دراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة. (شاييم برلمان ص 5) . كما حدد الباحثان الغاية من الحجاج " غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد من درجة ذلك الإذعان" شاييم برلمان ص 59.

وقد جعل الباحثان متن أرسطو ،لا سيما في الجدل والخطابة، منطلقا لهما لتطوير نظرية الحجاج. نفسه ص 159.

لقد كفت البلاغة معهما عن أن تكون خطابا للعامة والحشود والجهال كما كانت عند أرسطو. إذ أصبحت مع بيرلمان تغطي هذا المجال وأضاف إليه كل خطاب يسعى إلى تفعيل المخاطب وإلى وصف كل ما ينأى عن العلم والعقل المجرد. وهذا هو معنى الربط بين الجدل والخطابة في مشروع بيرلمان حسب محمد الوالي . (الاستعارة في محطات يونانية وعربية 358).

ومن جهة أخرى فقد وسع بيرلمان " البلاغة إلى الحدود البعيدة، وذلك عبر دمج الجدل، والانسانيات عامة والتحاور اليومي في هذا النموذج الموحد الذي دعاه البلاغة الجديدة." الوالي 355.

---

[1] - معجم تحليل الخطاب، ص 69

[2] - ينظر صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص ص16.

ويندرج تصور بيرلمان للخطابة ضمن توجه بلاغي عام " يروم جعل البلاغة علما مستقبليا هدفه . أو على الأصح أهدافه –تطوير المجتمع وتحليل مختلف الخطابات عن طريق الوقف على خططها الحجاجية المتأسسة عليها." عبد الله صولة : الحجاج أطره ومنطلقاته 102

منطلقات الحجاج:

حدد المؤلفان المنطلقات الحجاجية في مقدمات الحجاج واختيارها وطريقة صوغها. ومن هذه المنطلقات:

- الوقائع: تمثل ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس...
- الحقائق: تقوم على الربط بين الوقائع ، ومدارها النظريات العلمية والتصورات الفلسفية والدينية المتعالية على التجربة.
- الافتراضات: تحدد بالقياس إلى المحتمل والعادي وتكون موضع موافقة عامة، إلا أن التسليم بها يستمد من عناصر أخرى في المسار الحجاجي تقويها.
- القيم: هي أساس الحجاج في مجالات القانون والسياسة والفلسفة، " إذ يعتمد عليها في تغيير مواقع السامعين وفي دفعهم إلى الفعل المطلوب." كما اعتبرها بيرلمان بمثابة قواعد حجاجية"، نستند عليها لكي نحمل المخاطب على القيام بأفعال معينة بدل أخرى، كما أننا نستدعيها خصوصا من أجل تبرير تلك الأفعال بطريقة تجعل هذه الأفعال التي دعونا إليها مقبولة ومؤيدة من طرف الآخرين... فبالقيم نستطيع تشكيل الحقيقة المطلوبة على الوجه الذي يريده المبدع (المحاجج)...

وهي إما مجردة مثل العدل والحق أو محسوسة مثل الوطن، ونكون بصدد القيم حينما " يصبح أحد الشيئين أرفع من شيء آخر أو أحط منه، حيث يحكم على شيء بأنه أرفع ويجب تبعا لذلك أن يخص بالتفضيل." الحجاج في البلاغة المعاصرة 12.

- الهرميات: تخضع القيم لهرمية ما ، فهي درجات ومراتب. وتكتسي هذه الهرمية قوة حجاجية قد تفوق القوة الحجاجية للقيم نفسها.
- المواضع: هي مقدمات عامة، يلجأ إليها المحاجج لبناء القيم وترتيبها، وهي أنواع: (مواضع الكم، مواضع الكيف، مواضع الترتيب، مواضع الموجود، مواضع الجوهر.

إن هذه المقدمات باختلاف أنواعها تشكل الشروط الأساسية لبناء المسار الحجاجي إلا أنها غير كافية للخطيب، فهي تمثل معطيات متسعة وغزيرة تسمح باستعمالات متعددة. يبقى اختيار الخطيب واتقاؤه لعناصر المحاجة وتنظيمها هو ما يكسب فاعلية حجاجية. ومن أنجح الوسائل في تقديم عناصر الحجاج الاستحضار والتأويل. وتتداخل مع عملية اختيار المقدمات وتنظيمها عملية أخرى لا تقل أهمية عنها، وهي طريقة عرض هذه المقدمات. ثم إن انتقاء الألفاظ الخاصة والعامة، والحسية والمجردة... حسب المقام والمقصدية، فالمقام له قيمته الحجاجية.

وقد حصر المؤلفان موجهات التعبير في "الاثبات" و"الإلزام" و "الاستفهام" و"التمني". يضاف إليها صيغ لغوية أخرى لها بعد وفاعلية حجاجيان كاستعمال الأزمنة واعتماد الحِكَم والأمثال والصور البلاغية...وقد أولى بيرلمان للموجه الاستفهامي اهتماما كبيرا.

التقنيات الحجاجية:

عقد المؤلفان القسم الثالث من كتابهما(Traite de L arqumentation) لبسط أهم الطرائق في الخطاب الحجاجي وهي في نظرهما نوعان:

- طرائق الاتصال
- طرائق الانفصال

1) طرائق الاتصال في الحجاج:

هي طرائق تربط بين عناصر غير مترابطة في أصل وجودها. وهي " الآليات التي تقرب بين العناصر المتباينة وتمكن من إقامة روابط علاقة بينها كي يمكن دمجها في بنية حجاجية متماسكة وموحدة." كما تشمل كل الحجج التي اهتمت بها البلاغة القديمة."

ويتخذ الاتصال الحجاجي ثلاثة مظاهر وهي:

أ-الحجج شبه المنطقية: حجج تقبل الصياغة المنطقية غير أنها غير ملزمة لهذا وصفت بالمشابهة.

ب- الحجج المؤسسة على بنى الواقع: وهي حجج تستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها وأحكام يسعى الخطباء إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلما بها، وذلك لجعل الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها

بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر، ومن هنا جاء وصفها بكونها حججا اتصالية أو قائمة على الاتصال." الحجاج أطره ومنطلقاته. عبد الله صوله،33.|

ت- الحجج المؤسسة لبنى الواقع: تقوم هذه الحجج على مستويين اثنين "أولهما تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة، كالمثل الذي يؤتى به لتأكيد الفكرة المطروحة.. ويلحق بالمثل الاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القواد الخالدين في نظر الجماعة المقصودة.. أما ثانيهما فيقوم على استخدام التمثيل استخداما حجاجيا." الحجاج في البلاغة المعاصرة لمحمد سالم 131-132.

2) **<u>طرائق الانفصال في الحجاج:</u>**

يقتضي الانفصال بين العناصر في الحجاج وجود وحدة بينها ومفهوم واحد، ويقوم هذا النوع من الحجاج على كسر هذه الوحدة بالفصل بين العناصر المتضامنة، ويقصد بطرائق الانفصال "التقنيات التي تستخدم بهدف تفكيك اللحمة الموجودة بين عناصر تشكل كلا لا يتجزأ ، وغالبا ما تستخدم هذه التقنيات في تفكيك الأبنية الحجاجية التي يخشى المتكلم على نجاح حجاجه منها" الحجاج في البلاغة المعاصرة ص 127.

وتتجلى طرائق الفصل في الأقوال والخطابات في عبارات من قبيل:

- (-ظاهري \حقيقي؛ Apparent/réel
- - ظاهريا \ حقيقية ؛ Apparemment/réellement

كما يعبر عنها بطرائق من قبيل: هو شبه كذا، مثل شبه علمي؛ لا علمي، غير صحيح،

- بعض الجمل الاعتراضية كقولنا: إن هذا البطل – إن صح أنه بطل –
- بعض الأفعال: مثل يزعم، يتوهم،
- وضع بعض الكلمات بين قوسين أو مزدوجتين، كأن نكتب: لقد كنتَ يومها "بطلا".

ويرى المؤلفان أن أنجع الكلام ما جاء على قدر المقام ، إذ يتطابق موضوع الخطاب وأسلوبه فيتجنب حصول ضروب الفصل السابقة.[1]

و يسجل الدكتور محمد طروس،[2] في تعليق له على الحجاج عند بيرلمان، أن بيرلمان ينطلق من أن الإجراء العقلي لا يجب أن يتوقف عند حدود الحجج المؤسسة على البرهنة والتجربة، بل يجب أيضا أن يتدخل في قضايا ترجع إلى الرأي، وإلا عجزنا واضطررنا، في غياب التجربة أو الاستنباط المنطقي، إلى فسح المجال لقوانا الانفعالية، للغرائز، للإيحاء والعنف.

وقد فتح بيرلمان، من هذا المنظور، أمام الحجاج آفاقا جديدة، وحاول إخراجه من الدائرة الضيقة التي حصرته فيها الدراسات التقليدية، كأداة تقنية صرفة، توظف في المجالات العقلية أو التجريبية الصرفة؛ إلى عالم الاحتمالات، عالم الآراء والقيم والتفاعلات بين الأفراد والجماعات، بين الأفكار والأطروحات؛ يريده أن يكون ذرعا واقيا أمام انفعالاتنا وغرائزنا؛ أن تتحول أدواته العقلية واستنباطاته التطبيقية والتجريبية من حجج متراكمة إلى نظرية للخطاب.

أصبح الحجاج إذن مع بيرلمان نظرية تدرس التقنيات الخطابية كوظيفة حجاجية، وتفحص شروطها وآثارها، إذ تنصب الممارسة على الحجج العقلية والتجريبية، وعلى قضايا ترجع إلى الرأي وتواجه الجانب اللاعقلاني من رغبات ومصالح وأهواء؛ مما يوجب التمييز بين البرهنة المستقلة عن الذات، وبين الحجاج كممارسة ذاتية اجتماعية.

فالعملية الحجاجية عند بيرلمان هي عملية جدلية، تنطلق مع أطروحة أو ضدها، وتتجه للإفحام أو الإقناع، لتقوية الانخراط أو تقليصه. ويتحرك الحجاج داخل بنية حوارية، يتعدد فيها المخاطب كميا، ويتنوع كيفيا؛ ويختلف بين كونه واقعا خارجيا، وبين كونه بناء خطابيا؛ ويتحقق في بنية تواصلية أحادية، من الخطيب إلى المتلقي. ويكتسب الحجاج فعاليته من السياق الاجتماعي، ويستقي شرعيته من مالكي السلطة داخل المجتمع.

[1] - ينظر عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع ص 176.
[2] - ينظر: د. مجمد طروس، النظرية الحجاجية ص 56

غير أن النموذج الحجاجي عند بيرلمان، حسب محمد طروس، لا يعدو أن يكون "إعادة تنظيم للتصور البلاغي التقليدي. فلا تزال وظيفة الحجاج، في العمق، تتمثل في مقاومة الانحرافات الخطابية، ولا يزال يستند على نفس العلاقات التواصلية (الخطيب – المتلقي) الهادفة إلى إحداث تعديل في الأذهان. وما التقنيات الحجاجية الموجهة للتأثير إلا الحجج كما صنفتها البلاغة التقليدية... يبدو أن بيرلمان فكر وناضل من أجل عتبات فعالية الآلة الحجاجية ، ولكنه لم يأخذ الوقت الكافي لبنائها وتشغيلها."[1]

[1] - د. مجمد طروس، النظرية الحجاجية ص 56 (بتصرف).

نماذج تطبيقية :

النموذج الأول: الحجاج في الخطاب القرآني

قال الله تعالى في سورة الضحى:

(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

حللْ هذه السورة تحليلا بلاغيا مستثمرا معارفك ومهاراتك البلاغية.
السياق التخاطبي: سياق نزول السورة ومناسبتها.
أطراف التخاطب:
المخاطِب: يخاطب الله عز وجل رسوله الكريم في هذه السورة.
المخاطب 1: الرسول صلى الله عليه وسلم.
المخاطب2: كفار قريش وأهل مكة .
الخطاب / الرسالة: رسالة تثبيت وتطمين وبيان معية الله تعالى وولايته لرسوله صلى الله عليه وسلم.
المقصدية: تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن اشتد عليه أذى قريش.في فترة تأخر الوحي.
مضمون الرسالة: الرد على ما كان يروج في أوساط مكة، وتحديدا في صفوف كفار قريش عن الرسول **صلى الله عليه وسلم، بعد تأخر الوحي.**
الحجج والأدلة : بيان نعم الله على رسوله وتعدادها:
(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)
أساليب الاستدلال البلاغية:
- بدأت السورة بأسلوب القسم ((وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)، والغرض منه التأكيد، ورغم أن المخاطب، هنا لا يحتاج إلى تأكيد، فهو صديق بما نزل عليه، إلا أن هناك مخاطبا آخر، جاحد ومنطر، وهم كفار قريش.
- النفي: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) وظيفته : نفي شائعات أهل قريش ومن والاهم.
- الخبر الطلبي: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) وظيفته: وعْد بما سيناله من الجزاء الأوفى، وذلك قصد طمأنته وتثبيته في دعوته.
- الاستفهام التقريري الحجاجي : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)
ووظيفته: بيان نعم الله تعالى على رسوله، وهي نعم تدل على أن الله معه بتأييده، وكيف لا وقد آواه بعد اليتم، وهداه بعد الضلال، وأغناه بعد الفقر؟.
- **النهي : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ).** وظيفته: النهي عن أخلاق الجاهلية، وعما لا يليق به كرسول داعي إلى البر وإلى الخير، وليشكر الله على ما أنعم عليه، فعليه أن يتخلق بما يقتضيه مقام الشكر.
- **الأمر: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)** وظيفته : الحث على الشكر وإظهار النعم، وذلك يقتضيه الإيمان، فالمؤمن شاكر لربه، وفيه رد على المشركين، الذين ينكرون النعم ولا يعترفون بها للمنعم، ومنها إنكارهم ما أنعم الله به على رسوله، رغم أن ذلك كان ظاهرا لهم.

الروابط اللغوية:
تنوعت الروابط في هذه السورة بين :
الروابط الدالة على الإثبات (ألم)، فالاستفهام المتبوع بالنفي إثبات وتقرير، يفيد الحجاج، ويستعمل في حال يكون فيها المخاطب في حاجة إلى التذكير.
والروابط الدالة على النفي (ما) ، والروابط الدالة على الوصل والإشراك في الحكم (و).
الروابط الدالة على التأكيد : (ل – ف – ل – سوف) في : وللاخرة... ولسوف ... فترضى.
الرابط "أما" الدال على التفصيل.
وسائل التأثير:
جاءت السورة غنية بالأساليب البلاغية وبعناصر التأثير الصوتية، ومنها اتحاد الفواصل، الجناس، تنغيم الأساليب – الطباق – التكرار.
خلاصة:
وهكذا يتضح أن سورة الضحى، خطاب حجاجي، تعددت أطرافه، وتنوعت غاياته، وحضرت فيه عناصر الحجاج ووسائل الإقناع.

2) نموذج لنص حجاجي خطابي

النص الحجاجي: خطبة الحسين بن علي.

خطب الحسين بن علي رضي الله عنهما في أصحابه في كربلاء فقال:

"أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحُرَمِ الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعمل في عباد الله بالإثمِ والعدوان، فلم يُغيّرْ ما عليه بفعل ولا بقول، كان حقا على الله أن يدخلَه مُدخَلَه.

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحقُّ من غَيَّرَ.

وقد أتتْني كتبكم ورسلَكمْ ببيْعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخْذلوني،فإن أقمتُمْ على بيعتِكمْ، تصيبوا رُشْدكم.

وأنا الحسين بن علي بنُ فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم. فلكُمْ فيَّ أُسوة. وإن لمْ تفعلوا ونقضتمْ عهدي، وخلعْتم بيعتي، فلَعمْري ما هي لكم بنكير. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرورُ من اغترَّ بكم، فحظُّكم أخطأتم، ونصيبكمْ ضيَّعتم. (فمن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه) وسيُغني الله عنكم ، والسلام".

تحليل الخطبة:

تتضمن هذه الخطبة أهم مقومات الخطاب الحجاجي، فالخطيب : الحسين بن علي رضي الله عنه يحاول في هذه الخطبة إقناع مخاطبيه(وهم أصحابه في كربلاء) بضرورة نصرته على بني أمية.

1) أطراف الحجاج:

الخطيب (الحسين) - المخاطبون (أصحاب الحسين في كربلاء) – الخطاب (نص الخطبة) –

2) **موضوع الخطبة**:

دعوة الحسين بن علي أصحابه في كربلاء لنصرته لإقامة الحق ومحاربة الباطل والمنكر الذي أعلن عنه خصومه بنو أمية.

3) موقف الخطيب: عبر الخطيب في هذه الخطبة عن المواقف التالية:

ا – موقف معارض لبني أمية: معارضة بني أمية الذين تطاولوا في نظره على حدود الله: " ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحقُّ من غَيَّرَ."

ب – موقفه عدم الرضى من أصحابه: عدم الرضى، لأنهم متخاذلون عن نصرته: " وإن لمْ تفعلوا ونقضتمْ عهدي، وخلعْتم بيعتي، فلَعمْري ما هي لكم بنكير. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرورُ من اغترَّ بكم، فحظُّكم أخطأتم، ونصيبكمْ ضيَّعتم".

ج – **موقفه من المنكر**: ضرورة المبادرة إلى تغييره: "أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحُرَمِ الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعمل في عباد الله بالإثمِ والعدوان، فلم يُغيّرْ ما عليه بفعل ولا بقول، كان حقا على الله أن يدخلَه مُدخَلَه".

4) الحجج ووسائل الإقناع :

❖ **الحجج الجاهزة** :

الآية القرآنية: (فمن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه)

الحديث النبوي: " من رأى سلطانا جائرا ولم يغير منكره .....

❖ حجج دينية: وتشمل الأدلة الدينية التي وظفها الخطيب لإقناع المخاطبين مثل:

- من لم يغيرْ المنكر وهو يراه فهو آثمٌ بل ومُهدد بأن يدخل مُدخل صاحب المنكر.
- بنو أمية أشهروا المنكر لأنهم اتصفوا حسب الخطيب بما يلي: (**- لزوم طاعة الشيطان - ترك طاعة الرحمن - إظهار الفساد - تعطيل الحدود - الاستئثار بالفيء - إحلال حرام الله - تحريم الحلال).**

النتيجة : **إذن وجبت محاربتهم ونصرة أهل الحق.**

أسلوب القياس: في هذه الخطبة **قياس واضح** وهو:

المقدمة1 : من رأى سلطانا جائرا ولم يغير منكره ناله العقاب.

المقدمة2 : بنو أمية جاروا عن طريق الرحمن وساروا في طريق الشيطان.

النتيجة: يجب تغيير منكر بني أمية، وإلا نزل العقاب. وأنا قائم لذلك اعتمادا على بيعتكم ونصرتكم

أساليب إقناعية أخرى:

حجج عاطفية: - الأحقية في القيادة - النسب الشريف - مبايعة أصحابه له: فبما أن الحسين من أهل الحق، وهو أحق بالتغيير، فقد وجبت نصرته وتعينتْ. ويدعم هذا الوجوب أن المخاطبين بهذا الحجاج، أي أصحاب الحسين، قد بايعوه على النصرة: "وقد أتتْني كتبكم ورسلَكمْ ببيْعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخْذلوني.

ثم بيان أن الحسين أهْلٌ للطاعة وللنصرة بسبب نسبه الشريف وقرابته للمخاطبين : "وأنا الحسين بن علي بنُ فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم. فلكُمْ فيَّ أُسوة".

- أسلوب الترغيب: وسيُغني الله عنكم .
- أسلوب الترهيب: حظُّكم أخطأتم، ونصيبكمْ ضيَّعتم. (فمن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه).
- أسلوب السخرية والاستهزاء: وذلك بتذكيرهم بماضيهم في الخذلان ونقض العهد: "وإن لمْ تفعلوا ونقضتمْ عهدي، وخلعْتم بيعتي، فلَعمْري ما هي لكم بنكير. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرورُ من اغترَّ بكم.

أساليب الحجاج البلاغية:

الخطبة غنية بأساليب الإقناع البلاغية، وفي مقدمتها الأسلوب الخبري بأضربه وأغراضه:

-الخبر الابتدائي: - أنا الحسين بن علي بنُ فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم - نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم. وهو خبر يفيد الافتخار وبيان الأهلية للطاعة والحكم.

- **الخبر الطلبي:** إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال.. + فلكُمْ فيَّ أُسوة.

- الخبر الإنكاري: ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن -- لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل.....

- الخبر المنفي: فلم يُغيِّرْ ما عليه بفعل ولا بقول....

- الخبر الطلبي المتبوع بأسلوب النفي: وقد أنثْني كتبكم ورسلَكمْ بِبيْعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخْذلوني.

- الخبر المفيد للاستهزاء: +"ما هي لكم بنكير. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل،

- الخبر المفيد للتحسر وخيبة الأمل: + المغرورُ من اغترَّ بكم،

- الخبر المفيد للترهيب : + فحظُّكم أخطأتم، ونصيبكمْ ضيَّعتم.

- الخبر المفيد للترغيب: + فإن أقمتُمْ على بيعتِكمْ، تصيبوا رُشْدكم.

- أسلوب الشرط: فإن أقمتُمْ على بيعتِكمْ، تصيبوا رُشْدكم. + من رأى سلطانا جائرا... - وإن لمْ تفعلوا ونقضتمْ عهدي...

- **أسلوب الوصل :** وفيه تم الربط بين عدة أدلة وحجج، ومن أمثلته في الخطبة:

" ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله..."

" فحظُّكم أخطأتم، ونصيبكمْ ضيَّعتم"...

ومن الأساليب الإقناعية في الخطبة كذلك الأساليب الإنشائية وهي قليلة:

-أسلوب النداء: أيها الناس، وقد تم به افتتاح الخطبة، على عادة الخطباء في خطبهم.

- **أسلوب القسم:** فلَعمْري ما هي لكم بنكير...

الروابط الحجاجية:

جاءت الخطبة غنية بالروابط الحجاجية، وهي روابط تنوعت بين الروابط الدالة على التأكيد (إن – قد – لقد – فـــ...) والروابط الشرطية (إنْ – منْ) والروابط الدالة على النفي (لم – لا). وهناك أيضا أدوات الربط وأشهرها الواو، وقد تم بها الوصل بين الحجج والأساليب.

وسائل التأثير الصوتية:

اعتمدت الخطبة على وسائل التأثير الصوتية ومنها:

السجع بين الفواصل.... - الطباق والمقابلة: فإن أقمتُمْ على بيعتِكمْ، تصيبوا رُشْدكم.... وإن لمْ تفعلوا ونقضتمْ عهدي، وخلعْتم بيعتي..... فحظُّكم أخطأتم، ونصيبكمْ ضيَّعتم...

"لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن.... وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله..."

وإجمالا فالخطبة غنية بأساليب الإقناع والحجاج البلاغية وغير البلاغية. وقد جاءت وفق تصميم وترتيب الخطب العربية المشهورة، فبدأت ببيان وجوب تغيير المنكر ثم بسطت القضية والأدلة والشواهد المناسبة ثم انتهت بخاتمة.

النموذج الثالث: الحجاج في الشعر العربي

قال الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي في قصيدته "ابتسمْ":

1	قالَ "السَماءُ كَئيـبَةٌ" وَتَجَهَّما	قُلتُ اِبتَسِمْ يَكْفي التَجَهُّمُ في السَّمَا !
2	قالَ الصِبا وَلَّى! فَقُـلتُ لَهُ اِبتَسِم	لَن يُرجِعَ الأَسَفُ الصِبا المُتَصَرِّما
3	قالَ الَّتي كانَت سَمائِيَ في الهَوى	صارَت لِنَفسِيَ في الغَـرامِ جَهَنَّما
4	خانَت عُهودي بَعدَما مَلَّكْتُها	قَلبي فَكَـيفَ أُطيقُ أَنْ أَتَبَسَّما ؟
5	قُلتُ اِبتَسِمْ وَاِطْـرَبْ فَلَوْ قارَنتَها	قَضَّيتَ عُـمرَكَ كُلَّهُ مُتَأَلِّما !
6	قالَ العِدى حَوْلي عَلَتْ صَيحاتُهُم	أَأُسَرُّ وَالأَعداءُ حَولِيَ في الحِمى؟!
7	قُلتُ اِبتَسِمْ لَم يَطْلُبوكَ بِذَمِّهِـم	لَو لَمْ تَكُن مِنهُم أَجَـلَّ وَأَعْظَما
8	قالَ المَواسِمُ قَـدْ بَـدَتْ أَعلامُها	وَتَعَرَّضَتْ لي في المَلابِسِ وَالدُمى
9	وَعَلَيَّ لِلأَحبـابِ فَـرضٌ لازِمٌ	لَكِنَّ كَفّي لَيسَ تَمْـلِكُ دِرهَما
10	قُلتُ اِبتَسِـمْ يَكْفيكَ أَنَّكَ لَم تَزَلْ	حَيّاً وَلَستَ مِنَ الأَحِبَّةِ مُـعدَما
11	يا صاحِ لا خَطَرٌ عَلى شَفَتَيكَ أَن	تَتَلَثَّما وَالوَجـهِ أَن يَتَحَطَّما
12	فَاِضحَكْ فَإِنَّ الشُهبَ تَضحَكُ وَالدُجى	مُتَلاطِمٌ وَلِذا نُحِـبُّ الأَنجُما

المطلوب:

حلل هذه القصيدة تحليلا بلاغيا مركزا على العناصر الآتية:

- ✓ موضوع الحوار وأطرافه ومقصديته في القصيدة؛
- ✓ حُججُ كل طرف من طرفي الحوار (المتشائم والمتفائل) وطبيعتها وقوتها الإقناعية؛
- ✓ الأساليب البيانية ووظائفها في النص؛
- ✓ الأساليب الخبرية والإنشائية ووظائفها التعبيرية والحجاجية في النص؛
- ✓ الأساليب البديعية وأهميتها في الحجاج وفي التعبيرعن موقف الشاعر.

قصيدة ابتسم: عناصر الإجابة

1) موضوع الحوار وأطرافه ومقصديته في القصيدة:

عرض الشاعر إيليا أبو ماضي مظاهر معاناة المتشائم ورده عليه، مبينا أن تلك المظاهر ليست أسبابا ولا دوافع للتشاؤم بل تعكس في جانب منها عوامل إيجابية تدعو إلى التفاؤل.

وتتمثل أطراف الحوار في: الشاعر والمتشائم، وقد يكون الشاعر هنا يحاور ذاته المتشائمة، أو ذات الشاعر الرومانسي المتشائم.

مقصدية الحوار: القصيدة دعوة إلى التفاؤل، مهما كانت الظروف والأحوال.

2) **الحجج والأدلة**:

حجج المتشائم	السماء كئيبة – الصبا ولى – خيانة الحبيبة – وجود أعداء حوله – اقتراب المواسم وواجب الأحباب مع قلة المال....
حجج المتفائل	يكفي التجهم في السماء – الأسف لا يرجع الصبا – من خانت لا تستحق الحزن والأسى- وجود الأعداء دليل على أن لك شأنا – التوفر على الأحباب يدعو إلى التفاؤل -

طبيعة الحجج:

تبدو حجج المتفائل حججا مقنعة تركز على ما يملكه الإنسان من أسباب السعادة ولا تهتم بالأمور الخارجية التي ليست في ملك الإنسان ولا مسؤولية له على فواتها. بينما تبدو حجج المتشائم ذاتية وعاطفية غير مقنعة، لأنها تنطلق من نظرة متشائمة للأمور ولا تستحضر ما فيها من خير.

3) **الأساليب البيانية ووظائفها الحجاجية**:

جاء النص غنيا بالأساليب البيانية، وقد أدت وظائف متنوعة تأتي في مقدمتها الوظيفة الحجاجية، فالصورة التي بدأت بها القصيدة صورة السماء الغائبة، بدت للشاعر صورة كآبة فازداد تشاؤما وكآبة، لكن الشاعر رد عليه بأن ذلك لا ينبغي أن ينعكس على نفسه، بل يكفي التجهم في السماء.

ثم جاءت الصورة العاطفية المعبرة عن حب الشاعر (كانت سمائي في الهوى - ملكتها قلبي) في مقابل خيانة الحبيبة (صارت لنفسي في الغرام جهنما). وللتعبير عن حسد الأعداء للمتشائم، جاءت صورة (علتْ صيحاتهم).

بينما عبر المتفائل بصور شعرية تدعو إلى التفاؤل منها: الشهب تضحك والدجى متلاطم، (يا صاح لا خطر على شفتيك أن تتثلما ** والوجه أن يتحطما)، فكانت هذه الصور حججا قوية قصد إقناع المتشائم بأن لا فائدة من تشاؤمه، ولا ضرر يلحقه لو ضحك أو ابتسم، وخير دليل هو الطبيعة، (فالشهب تضحك والدجى متلاطم).

4) الأساليب الخبرية:

القصيدة غنية بالأساليب الخبرية، التي تأتي بعد (قال.....) (قلت....)، وقد تنوعت هذه الأساليب بين:

- الإثبات: قال السماء كئيبة.... العِدى حولي علَتْ صيْحاتهم ... يكفي التجهمُ في السماء...
- النفي : لنْ يرجع الأسف الصبا المنصرما – لم يطلبوك بذمهم - لا خطر على شفتيك أن تتثلما – لست من ألأحبة معدما..
- الخبر المؤكد: قد بدت ...
- الشرط: لو قارنتها – لو لم تكن ...
- **الأساليب والإنشائية**:
- تكرا الأمر المفيد للنصح (ابتسم – اطرب)
- الاستفهام المفيد للتعجب (أأسر والأعداء حولي في الحمى؟)
- النداء المفيد للتقريب (يا صاح)

5) أساليب البديع:

وظف الشاعر في القصيدة أساليب بديعية أدت أدوارا تأثيرية في المتلقي، منها الجناس: (ابتسم – أتبسما – العدى – الأعداء – قال قلت ...) والتكرار :(قال – قلت).